بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

حمداً لمن خصَّ سيِّدَ الرُّسل بكمال الفَصاحة بينَ البَدوِ والحضَر، وأنطقَهُ بجوامع الكَلِم فأعجزَ بُلغَاءَ رَبيعةَ ومُضَرَ، وأنزلَ عليه الكتابَ المُفْحِم بتَحدِّيه مَصاقِعَ[1] بُلغاءِ الأعراب، وآتاهُ بحكمتهِ أسرارَ البلاغةِ وفصلَ الخطابِ، ومنحَهُ الأسلوبَ الحكيمَ[2] في جوامعِ كَلِمِه، وخَصَّ «السَّعادةَ الأبديَّةَ» لمُقتفي آثارِهِ وحِكَمِه، صلَّى الله عليه وعلَى آله وأصحابه «جواهر البلاغة» الذين نَظمُوا لآلئَ البديعِ في عُقُود الإيجازِ والإطناب، ففُهْنا بعدَ اللَّكَن[3] «بجواهرِ الإعراب»، ونَطقَنا «بميزانِ الذَّهب»، وطَرَّزْنا سُطورَ الطُّرُوس «بجواهرِ الأدب»، فصارتِ «المُفردَ العَلَمَ» في باب النَّسب.

وبعدُ، فإنَّ العلومَ أرفعُ المطالب، وأنفعُ المآرب، وعلمُ البلاغةِ مِن بَيْنها أجلُّها شأناً، وأبْينُها تِبْياناً؛ إذْ هوَ الكفيلُ بإيضاح حقائقِ التَّنزِيل، وإفصاحِ دقائقِ التأويل، وإظهارِ «دلائلِ الإعجاز»، ورفعِ معالم الإيجاز.

ولاشتغالي بتدريس البيانِ بالمدارسِ الثانوية، كانت البواعثُ داعيةً إلى تأليفِ كتابٍ «جواهر البلاغة» جامعاً للمُهمَّات من القواعدِ والتطبيقاتِ. وأسألُ المولى جَلَّ شأنُه أن ينفعَ بهذا الكتابِ، وهو المُوفِّقُ للحقِّ والصَّواب.

---

(١) مفردها مصقع وهو البليغ الذي لا يُرتَج عليه.

(٢) الأسلوبُ الحكيم، والسعادة الأبدية، وجواهر البلاغة، وجواهر الإعراب، وجواهر الأدب، وميزانُ الذهب، والمفردُ العلم الواردة في هذه الخطبة أسماءُ بعضِ كتبٍ مطبوعةٍ لمؤلفِ هذا الكتاب، وغيرها من القواعد الأساسية للغة العربية، ومختارِ الأحاديث النبوية، والحِكم المحمدية، والسحرِ الحلال في الحكم والأمثال.

(٣) العيّ.

obeikandl.com

تمهيد

لَمّا وُضِع «علمُ الصَّرف» للنَّظر في أبنية الألفاظ.

ووُضع «علمُ النَّحْوِ» للنَّظر في إعرابِ ما تركَّب منها.

وُضعَ «البيان»[1] للنَّظر في أمر هذا التركيب، وهو ثلاثةُ علوم:

العلم الأول: ما يُحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يُريدُه المُتكلِّمُ لإيصالهِ إلى ذهنِ السَّامعِ، ويُسمَّى «علم المعاني».

العلم الثاني: ما يُحترز به عن التَّعقيد المعنوي - أي عن أن يكونَ الكلامُ غير واضح الدَّلالة على المعنى المُراد، ويُسمَّى «علم البيان».

العلم الثالث: ما يُرادُ به تحسينُ الكلام، ويُسمَّى «علم البديع». فعلمُ البديع تابعٌ لهما؛ إذ بهما يُعرفُ التَّحسينُ الذَّاتيُّ، وبه يعرفُ التحسينُ العَرَضيّ.

والكلامُ باعتبارهِ «المعاني والبيان» يقال إنه:

«فصيحٌ» من حيثُ اللفظ، لأن النَّظرَ في الفصاحةِ إلى مُجَرَّدِ اللفظِ دونَ المعنى.

«وبليغٌ» من حيثُ اللفظُ والمعنى جميعاً، لأنَّ البلاغةَ يُنظر فيها إلى الجانبين[2].

---

(١) علم البيان في اصطلاح المتقدمين من أئمة البلاغة يطلق على فنونها الثلاثة من باب تسمية الكل باسم البعض. وخصه المتأخرون بالعلم الباحث عن المجاز والاستعارة، والتشبيه، والكناية - والغرض منه صوغُ الكلام بطريقةٍ تبينُ ما في نفس المتكلم من المقاصد، وتوصلُ الأثرَ الذي يريدُه إلى نفس السامع.

(٢) وبيان ذلك أن الفصاحة تمامُ آلةِ البيان، فهي مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلقُ باللفظ دون المعنى. فإذاً هي كمالٌ لفظيٌّ توصَفُ به الكلمةُ والكلامُ. والبلاغةُ إنما هي إنهاءُ المعنى في القلب فكأنها مقصورةٌ على المعنى. ومنَ الدليل على أن الفصاحةَ تتضمن اللفظَ، والبلاغةَ تتناولُ المعنى، أن البغاءَ يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً، إذ هو مقيمُ الحروف وليس له قصدٌ إلى المعنى الذي يؤديه. وقد يجوز مع هذا أن يسمَّى الكلامُ =

وأما باعتبارِ البديعِ فلا يقالُ: إنه فصيحٌ ولا بليغٌ؛ لأنَّ البديعَ أمرٌ خارجيٌّ يُرادُ به تحسينُ الكلامِ لا غيرُ.

إذا تقرَّرَ ذلك، وجبَ على طالبِ البيانِ أن يعرفَ قبلَ الشُّروعِ فيه معرفَةَ معنى «الفصاحة والبلاغة» لأنَّهما محورهُ، وإليهما مرجعُ أبحاثه.

فهما الغايةُ التي يَقفُ عندَها المتكلِّمُ والكاتبُ، والضَّالَّةُ التي يَنشدانِها.

وما عقدَ أَئِمَّةُ البيانِ الفصولَ، ولا بوَّبوا الأبوابَ، إلا بُغيةَ أَنْ يوقفوا المُسترشِدَ على تحقيقاتٍ، وملاحظاتٍ، وضوابطَ، إذا رُوعيتْ في خطابه أو كتابهِ، بلغتِ الحدَّ المطلوبَ من سهولةِ الفهم، وإيجادِ الأثرِ المقصودِ في نفس السَّامع، واتَّصفتْ من ثَمَّ بصفةِ الفَصاحة[1] والبلاغةِ.

= الواحدُ فصيحاً بليغاً إذا كان واضحَ المعنى، سهلَ اللفظ، جيدَ السبك، غيرَ مستكرهٍ فَجّ، ولا متكلَّفٍ وَخِمٍ، ولا يمنعُه من أحدِ الاسمينِ شيءٌ لما فيه من إيضاحِ المعنى، وتقويم الحروف.

واعلمْ أن الفصيحَ من الألفاظِ هو الظاهرُ البَيِّنُ. وإنما كان ظاهراً بَيِّناً لأنه مألوفُ الاستعمال. وإنما كان مألوفَ الاستعمال بين النابهينَ من الكتاب والشعراء، لمكانِ حُسنه. وحسنُه مُدْرَكٌ بالسمع. والذي يُدرك بالسمع إنما هو اللفظُ لأنه صوتٌ يتألفُ مِن مخارجِ الحروف. فما استلذَّه السَّمْعُ منه فهو الحسنُ، وما كرهَهُ فهو القبيح. والحسنُ هو الموصوفُ بالفصاحة. والقبيحُ غيرُ موصوفٍ بالفصاحة. لأنه ضدُّها لمكانِ قُبحه.

(١) يرى الإمامُ عبدُ القاهر الجرجانيُّ وجمعٌ من المتقدمين أن الفصاحةَ والبلاغةَ والبيان والبراعة ألفاظٌ مترادفةٌ لا تتصفُ بها المفرداتُ، وإنما يوصفُ بها الكلامُ بعد تحرِّي معاني النحو فيما بينَ الكلم حسبَ الأغراض التي يصاغُ لها.

وقال أبو هلالَ العسكري في كتاب «الصناعتين»: الفصاحةُ والبلاغةُ ترجعانِ إلى معنى واحد، وإن اختلفَ أصلاهما؛ لأنَّ كلَّ واحد منهما هو الإبانةُ عن المعنى والإظهار له.

وقال الرازي في «نهاية الإيجاز»: وأكثرُ البلغاء لا يكادون يفرقونَ بين الفصاحةِ والبلاغة.

وقال الجوهري في كتاب «الصحاح»: الفصاحةُ هي البلاغة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمة[1]

في معرفة الفصاحة والبلاغة

الفصاحة

الفصاحة: تُطلَق في اللُّغة على معانٍ كثيرة، منها البيانُ والظُّهورُ. قال الله تعالى: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[2] أي أبينُ مِنّي منطقاً وأظهرُ منّي قَوْلاً.

ويُقالُ: أفصحَ الصَّبيُّ في منطقه، إذا بانَ وظهرَ كلامُه.

وقالت العربُ: أفصحَ الصُّبحُ، إذا أضاءَ، وفَصَح أيضاً.

وأفصحَ الأعجميُّ: إذا أَبانَ بعدَ أنْ لم يكنْ يُفصِحُ ويُبين.

وفصُحَ اللحَّانُ[3]، إذا عبَّرَ عمَّا في نفسه، وأظهرَه على وجهِ الصَّواب دونَ الخطأ.

---

(١) مقدمة مشتقة من قَدِمَ اللازم. وهذه مقدمةُ كتاب، لأنها ألفاظٌ تقدمتْ أمامَ المقصودِ لارتباطٍ له بها وانتفاع بها فيه. بخلافِ مقدمة العلمِ فهي معانٍ يتوقَّفُ المشروعُ عليها، كبيانِ حدِّ العلم المشروعِ فيهِ، وموضوعهِ، وغايتهِ.
واعلمْ أنَّ علومَ البلاغة أجلُّ العلوم الأدبية قدراً، وأرسخُها أصلاً، وأبسَقُها فرعاً، وأحلاها جَنًى، وأعذبُها وِرْداً؛ لأنها العلومُ التي تَستولي على استخراجِ دررِ البيانِ من معادنها، وتريكَ محاسنَ النُّكَتِ في مكامنها. (ولولاها لم ترَ لساناً يحوكُ الوشيَ، ويلفظُ الدر، وينفثُ السحر، ويريكَ بدائعَ الزهر، وينثرُ بينَ يديك الحلوَ اليانع من الثمر). فهي الغايةُ التي تنتهي إليها أفكار النُّظَّار، واللآلئُ التي تَتَطلبها غاصَةُ البحارِ لهذا كانتْ منزلتُها تلوَ العِلم بتوحيدِ الله تعالى.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٤ .

(٣) الذي يخطئ فلا يلتزم بالقواعد النحوية.

والفصاحةُ، في اصطلاح أهل المعاني، عبارةٌ عن الألفاظِ البيِّنةِ الظَّاهرة، المُتبادِرَةِ إلى الفهم، والمأنوسةِ الاستعمالِ بينَ الكتّابِ والشُّعراء لمكان حُسنها.

وهي تقعُ وصفاً للكلمة والكلام والمتكلِّم، حَسبما يعتبرُ الكاتبُ اللَّفظةَ وحدَها، أو مَسبوكةً مع أخواتِها.

فصاحة الكلمة

سلامتُها من أربعة عيوب:

١- خلوصُها من تنافر الحروف: لتكونَ رقيقةً عَذْبة، تَخِفُّ على اللّسانِ، ولا تَثقُل على السَّمعِ، فلفظُ «أَسد» أخفُّ من لفظ «فَدَوْكَسٍ»[١].

٢- خلوصُها من الغَرابةِ، وتكونُ مألوفةَ الاستعمال.

٣- خلوصُها من مُخالفةِ القِياس الصَّرفي، حتى لا تكونَ شاذة.

٤- خلوصُها من الكراهةِ في السَّمع[٢].

أمّا «تنافرُ الحروف»، فهو وصفٌ في الكلمة يُوجِبُ ثِقلَها على السَّمع، وصعوبةَ أدائها باللّسان، بسببِ كونِ حروفِ الكلمة مُتقاربةَ المخارج. وهو نوعان:

١- شديدٌ في الثِّقل: كالظَّش (للموضع الخشن)، ونحو: هُعْخُع (لنبتٍ ترعاهُ الإبل) من قول أعرابي:

تركتُ ناقَتي تَرْعَى الهُعْخُع

---

(١) الفدوكس هو الأسد.

(٢) ففصاحة الكلمة تكوُّنها من حروف متآلفة يسهلُ على اللسان نطقُها من غيرِ عناء، مع وضوحِ معناها، وكثرةِ تداوُلها بينَ المتكلمين ومُوافَقَتها للقواعد الصرفية. ومرجعُ ذلك الذوقُ السليم، والإلمام بمتْنِ اللغة، وقواعدِ الصرف. وبذلك تسلمُ مادتُها وصيغتُها ومعناها من الخلل.
واعلمْ أنه ليس تنافرُ الحروف يكون موجبُه دائماً قربَ مخارجِ الحروف؛ إذ قربُها لا يوجبُه دائماً، كما أنَّ تباعُدَها لا يوجبُ خِفّتها؛ فها هي كلمةُ «بفميَ» حسنةٌ، وحروفُها من مخرجٍ واحدٍ وهو الشَّفة، وكلمةُ (ملع) متنافرةٌ ثقيلة، وحروفُها متباعدةُ المخارج. وأيضاً ليسَ موجبَ التنافر طولُ الكلمة وكثرةُ حروفها.

٢- وخفيف في الثّقل: كالنَّقْنَقة (لصوتِ الضَّفادع) والنُّقَاخ (للماء العذب الصافي)، ونحو: مُشْتَشْزِرات (بمعنى مرتفعات) من قول امرئ القيس يصفُ شَعرَ ابنةِ عمِّه:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا تَضِلُّ العُقاصَ في مُثَنّىً ومُرْسَلِ[١]

ولا ضابطَ لمعرفة الثّقل والصعوبة سوى الذَّوق السَّليم، والحِسِّ الصَّادقِ النّاجمينِ عن النظرِ في كلام البُلغاء ومُمارسةِ أساليبهم[٢].

وأمّا غَرابةُ الاستعمال، فهي كونُ الكلمة غيرَ ظاهرةِ المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عندَ العرب الفصحاء، لأنَّ المعوَّلَ عليه في ذلك استعمالُهم.

---

(١) الغدائر: الضفائر، والضمير يرجع إلى (فرع) في البيتِ قبله. والاستشزار: الارتفاع. والعقاص: جمع عقيصة وهي الخَصلةُ من الشعر. والمثنى: الشعرُ المفتول. والمرسل: ضده. أي ابنةُ عمِّه لكثرةِ شعرِها بعضُه مرفوعٌ، وبعضُه مثنى، وبعضه مرسَل، وبعضه مَعقوص: أي مَلْوِيٌّ.

(٢) الألفاظ تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ قسمان حسنان، وقسم قبيح. فالقسمان الحسنان: أحدُهما ما تداولَ استعمالَه السلفُ والخَلَفُ من الزمن القديم إلى زماننا هذا. ولا يطلقُ عليه أنه وَحشيّ. والآخرُ ما تداولَ استعمالَه السلفُ دونَ الخلف. ويختلفُ في استعمالِه بالنسبة إلى الزمنِ وأهله. وهذا هو الذي يعابُ استعمالُه عند العرب، لأنه لم يكُنْ عندَهُم وحشياً، وهو عندنا وحشي.

ولا يسبقُ وهمك إلى قولِ قُصَراء النظر بأن العربَ كانت تستعملُ منَ الألفاظ كذا وكذا، فهذا دليلٌ على أنه حسن، بل ينبغي أن تعلمَ أن الذي نستحسنُه نحن في زماننا هذا، هو الذي كانَ عندَ العرب مستحسناً. والذي نستقبحُه هو الذي كان عندهم مستقبحاً. والاستعمالُ ليس بدليلٍ على الحسن؛ فإننا نحنُ نستعملُ الآن من الكلام ما ليسَ بحسنٍ، وإنما نستعملُه لضرورة. فليس استعمالُ الحسنِ بممكنٍ في كلِّ الأحوال. واعلمْ أن استحسانَ الألفاظ واستقباحَها لا يؤخَذُ بالتقليد من العربِ لأنه شيء ليس للتقليدِ فيه مجال، وإنما هو شيء له خصائصُ وهيئاتٌ وعلاماتٌ إذا وجدتْ عُلم حسنُه من قبحه. ألا تَرى أن لفظةَ (المزنة) مثلاً حسنةٌ عندَ الناس كافّة منَ العرب وغيرِهم، لا يختلفُ أحدٌ في حُسنها. وكذلك لفظُ (البُعاق) فإنها قبيحةٌ عندَ الناس كافة من العرب وغيرهم. فإذا استعملتها العربُ لا يكونُ استعمالُهم إياها مُخرجاً لها عن القبح، ولا يلتفتُ إذن إلى استعمالهم إياها بل يُعابُ مستعملُها، ويُغلظ له النكيرُ حيث استعملها. فلا تظنَّ أنَّ الوحشيَّ من الألفاظ ما يكرهُه سمعُك، ويثقلُ عليك النطقُ به، وإنما هو الغريبُ الذي يقلُّ استعمالُه. فتارةً يخفُّ على سمعك ولا تجدُ به كراهةً، وتارةً يثقلُ على سَمعك وتجدُ منه الكراهة، وذلك في اللفظ عيبانِ كونُه غريبَ الاستعمال وكونُه ثقيلاً على السمع، كريهاً على الذوق. وليس وراءَه في القبح درجةٌ أخرى، ولا يستعملُه إلا أجهلُ الناس ممن لم يخطرْ بباله شيءٌ مِن معرفة هذا الفنِّ أصلاً. انتهى عن المثل السائر، بتصرف.

القسم الثاني: ما يُعابُ استعمالُه لاحتياجٍ إلى تتبُّع اللغات وكثرةِ البحثِ والتفتيش في المعاجم وقواميسِ متنِ اللغة المطَولة.

أ- فمنه ما يُعثَرُ فيها على تفسيرٍ بَعْدَ كَدٍّ وبَحثٍ، نحو: تَكأكأتُم (بمعنى اجتمعتُم) من قول عيسى بنِ عمرو النَّحْويِّ: «ما لَكُم تَكَأكَأتُمْ[١] عَلَيَّ كَتَكأكُئِكُم على ذِي جِنَّةٍ[٢]؟ افرنقِعُوا عنّي[٣]. ونحو: (مُشمَخِرٌّ) في قول بِشْرِ بنِ عوَانَةَ، يَصفُ الأَسدَ:

فَخرَّ مُضَرَّجاً بِدمٍ كأنّي هَدَمْتُ به بِناءَ مُشمَخِرّا

ب - ومنه ما لم يُعْثر على تفسيره نحو (جَحْلَنْجَع) من قولِ أبي الهَمَيْسَع:

مِنْ طَمحةٍ صَبِيرُها جَحْلَنْجَعِ[٤] لم يَحْضُها الجَدْوَلُ بالتَّنوُّعِ

وأمَّا (مُخالفة القياس) فهو كونُ الكلمة شاذَّةً غيرَ جارية على القانون الصَّرفي المُسْتَنْبَط من كلام العرب؛ بأن تكونَ على خلافِ ما ثبتَ فيها عن العُرف العربيِّ الصَّحيح[٥] مَثل (الأجْلَلِ) في قول أبي النَّجْم:

الحمدُ لله العليِّ الأجْلَلِ الواحدِ الفَرْدِ القديمِ الأوَّلِ

فإنَّ القياسَ (الأجَلُّ) بالإدغام، ولا مُسَوِّغَ لفكِّهِ. وكقطعِ همزةِ وصل «اثنين» في قول جَميل:

---

(١) اجتمعتم.

(٢) جنون.

(٣) انصرفوا. وقال ذلك حينَ سقطَ عن دابته فاجتمع الناس حوله.

(٤) الطمحة: النظرة. والصَّبير: السحاب المتراكم. وقبله:

إنْ تَمْنعي صَوْبَكِ صوبَ المدمعِ يجري على الخدِّ كضَبِّ الثَّعْثَعِ

الضبّ: الحب، والثعثع: اللؤلؤ. قال صاحب القاموس: ذكروا جَحْلنجع ولم يفسِّروه. وقالوا: أكان أبو الهميع من أعراب مدين؟ وكنا لا نكادُ نفهمُ كلامه اهـ.

(٥) ما استثناه الصرفيون من قواعدهم المجمع عليها، وإن خالف للقياس (فصيح)، فمثل (آل وماء) أصلهما أهل وموه؛ أبدلت الهاء فيهما همزة. وإبدالُ الهمزة من الهاءِ وإن كانَ على خلافِ القياس إلا أنه ثبتَ عن الواضع. ومثلُ (أبى يأبى) بفتح الباء في المضارع، والقياس كسرها فيه لأن فَعَلَ بفتح العين لا يأتي مضارعُه على يفعل بالفتح إلا إذا كان عينُ ماضيه أو لامُه حرفَ حلقٍ كسألَ ونَفَع. فمجيءُ المضارع بالفتح على خلافِ القياس، إلا أن الفتحَ ثبتَ عن الواضع. ومثل (عورَ يَعْوُر) أي فالقياسُ فيهما عارَ يعارُ بقلبِ الواو ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها. فتصحيحُ الواوِ خلافُ القياس إلا أنه ثبتَ عن الواضع.

ألا لا أرى إثنينِ أحسَنَ شِيمةً على حَدَثانِ الدَّهرِ منِّي ومن جُمْلِ[١]

ويُستثنى من ذلك ما ثبتَ استعمالُه لَدى العربِ مُخالفاً للقياس ولكنَّه فصيح.

لهذا لم يخرُجْ عن الفصاحةِ لفظتا (المشرِق والمغرِب) بكسر الراء، والقياسُ فتحُها فيهما، وكذا لفظتا (المُدهُن والمنْخُل) والقياسُ فيهما مِفْعَل بكسر الميم وفتح العين، وكذا نحو قولهم: (عَورَ) والقياسُ عارَ؛ لتحرُّك الواو وانفتاح ما قبلها.

وأمَّا (الكراهة في السَّمع) فهو كونُ الكلمة وحشِيَّة، تأنَفُها الطِّباعُ وتمجُّها الأسماع، وتَنبُو عنه، كما يَنْبُو عن سماعِ الأصوات المُنكرة. (كالجِرشيِّ للنفس) في قول أبي الطّيب المُتنبِّي يمدح سَيف الدَّولة:

مُبارَكُ الاسْمِ أغرُّ اللَّقبْ كَريمُ الجِرشِيِّ شريفُ النَّسَبْ

ومُلخَّصُ القول: إنَّ فصاحةَ الكلمة تكونُ بسلامتها من تنافُر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس، ومنَ الابتذال، والضَّعف.

فإذا لصقَ بالكلمة عيبٌ من هذه العيوبِ السابقةِ وَجبَ نبذُها واطِّراحُها.

تطبيق (١)

ما الذي أخلَّ بفصاحة الكلمات فيما يأتي؟:

- قال يحيى بنُ يعمر لرجلٍ حاكمتْهُ امرأتُه إليه: «أئن سألَتْكَ ثَمَنَ شَكْرِها وشَبْرِك، أخذَت تُطلُّها وتُضْهِلها[٢] ؟

- وقالَ بعضُ أمراءِ العرب، وقد اعتلَّتْ أمُّه، فكتبَ رِقاعاً وطرَحها في المسجدِ الجامع بمدينةِ السلام: «صِينَ امرؤٌ وَرَعاً، دَعا لامرأةٍ اِنْقَحْلَة[٣]،

---

(١) الشيمة: الخلق. والحدثان: نوائبُ الدهر. وجمل: فرسه.

(٢) الشكر: الرضاع. والشبر: النكاح. وتطلها: تسعى في بُطلان حقِّها. وتضهلها: تعطيها الشيءَ القليل.

(٣) يابسة.

مُقْسَئِنَّةٍ[١]، قد مُنِيَتْ بأكلِ الطَّرموقِ[٢] فأصابَها من أجلهِ الاستِمْصالُ[٣] بأن يَمُنَّ الله عليها بالاطْرِغْشاشِ[٤] والابْرِغْشاشِ».

- أسمعُ جَعْجَعَةً[٥]، ولا أرى طِحْناً، الإسْفِنْطُ[٦] حرام، وهذا الخَنْشَليل[٧] صَقيلٌ، والفَدَوْكَسُ مُفترسٌ[٨].

- يومٌ عصبصبٌ، وهِلَّوْفٌ، ملأَ السَّجْسَجَ طَلا[٩].

أمِنَّا أَنْ تُصَرَّعَ عن سَماحٍ ... وللآمالِ في يدكَ اصْطِراعُ[١٠]

- وقال الفرزدق:

إذا الرِّجالُ رأَوا يَزيدَ رأيتَهُمْ ... خُضُعَ الرِّقابِ نواكِسَ الأبصارِ[١١]

- وقال أبو تمام:

قَد قُلتُ لَمّا اطلَخَمَّ الأمرُ وانْبَعَثَتْ ... عَشْوَاءُ تالِيةً غُبْساً دَهارِيسا[١٢]

---

(١) مسنة عجوز.
(٢) ابتليتْ بأكل الطين.
(٣) الإسهال.
(٤) البرءُ، وكذا معنى ما بعده.
(٥) جعجعة: غير فصيحة لتنافُر حروفها، وهو مثلٌ يُضربُ لمن يقولُ ولا يفعل.
(٦) الإسفنط: الخمر.
(٧) الخنشليل: السيف.
(٨) الفدوكس: الأسد. فكل من هذه الألفاظ الثلاثة وحشية غير مألوفة.
(٩) شديد البرد فيهما، والسجسج: الأرضُ التي ليستْ بسهلة ولا صلبة.
(١٠) أراد: أنهم أمنوا أن يغلبه غالبٌ يصرعُه عن السماع ويمنعُه منه. وأما قوله: (وللآمالِ في يدكَ اصطراعُ) فمعناه تنافسٌ وتغالبٌ وازدحامٌ في يده. يريدُ كثرةَ نوالهِ وكرمهِ. واستعمالهُ للفظة «الاصطراع» بهذا المعنى بعيد.
(١١) فقد جمع (ناكس) على (فواعل) شذوذاً، وهذا لا يطردُ إلا في وصفٍ لمؤنثٍ عاقل لا لمذكرٍ كما هنا إلا في موضعين (فوارس وهوالك). والناكس: مطأطئ الرأس.
(١٢) قال صاحبُ «المثل السائر»: إن لفظَ (اطلخم) منَ الألفاظ المنكرة التي جَمعتِ الوصفين القبيحين: في أنها غريبة، وأنها غليظةٌ في السمع، كريهةٌ على الذوق. كذلك لفظةُ (دهاريس).
واطلخم: أي اشتدَّ وعَظُم. والعشواءُ: الليلة المظلمة. والغبسة: جمع أغبس وغبساء، وهي الشديدة الظلام مثلها. والدهاريسُ: جمعُ دهريس وهي الدواهي.

– وقال شَمِر:

– وأحمقَ مِمَّنْ يَكْرَعُ الماءَ قال لي: دَعِ الخمرَ واشربْ مِنْ نُقاخٍ مُبرَّدِ[١]

– يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمسِي بغيرِها جَحِيشاً ويَعْرَوْرِي ظهُورَ المسالكِ[٢]

– فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذي هوَ حالِلٌ ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذي هو مُبْرِمُ[٣]

– مُقَابَلٌ في ذُرا الأذْوَاءِ منصبهُ عِيْصاً فعِيصاً وقُدْمُوساً فقُدْموسا

– وقال أبو تمام:

نِعْمَ مَتاع الدُّنْيا حَبَاك بهِ أرْوَعُ لا جَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

– وقال امرُؤُ القَيس: «رُبّ جَفْنَةٍ[٤] مُثْعَنْجِرَة، وطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَة، وخُطبةٍ مُستحضَرة، وقصيدةٍ مُحبَّرة، تَبقى غداً بأنْقِرَة»[٥].

– أكلتُ العَرينَ، وشربتُ الصُّمادِحَ[٦]، إني إذا أنشدتُ لأحبَنْطَى[٧] تزلُّ بزيدٍ داهيةٌ خنْفقيقٌ، وحلَّ به عنقَفِيرٌ، لم يَجدْ منها مَخلصاً، رأيت مَاءً نُقاخاً[٨]

---

(١) الماء العذب الصافي.

(٢) الموماة: المفازة الواسعة. ويقال للمستبد برأيه: جَحيش. ويقال: اعرورى الفرسَ: ركبها عُرياناً. وإن لفظةَ جَحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة. وياالله العجب، أليس أنها بمعنى فريدٍ، وفريدٌ لفظة حسنة رائقة. ولو وضعت في هذا البيت موضعَ جحيش لما اختل شيء من وزنه. فتأبَّط شرّاً ملومٌ من وجهين في هذا الموضع؛ أحدُهما أنه استعمل القبيح. والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعمالِه فلم يعدِلْ عنه.

(٣) العيبُ في هذا البيتِ من حيثُ فكُّ الإدغام في (حالل ويحلل) بلا مُسوغ وهو شاذٌّ ومخالف للقياسِ الصَّرفي ومخالفٌ للكلام العربي الصحيح.

(٤) يريد بقوله: جفنة: صفحة كبيرة ملأى تُشبع عشرة. والمثعنجرة: السائلة. والمسحنفرة: الماضية بسرعة. وطعنة متسعة ببلد أنقرة. وهو كلام امرؤ القيس لما قصد ملك الروم ليستنجده على قتلة أبيه، فهويته بنت الملك وبلغ ذلك القيصر فوعده أن يتبعه بالجنود إذا بلغ الشأم، أو يأمر من بالشأم من جنوده بنجدته – فلما كان بأنقرة بعث إليه بثياب مسمومة فلما لبسها تساقط لحمه فعلم بالهلاك – فقال: رب إلخ.

(٥) أنقرة: بلدة في الأناضول، وهي اليوم عاصمة الدولة التركية.

(٦) يريد: اللحم والماء الخالص.

(٧) احبنطى: انتفخ بطنه.

(٨) عذباً.

ينباعُ[١] من سفحِ جبَلٍ شامخ. إخالُ إنك مَصْوُون[٢]. البُعاقُ[٣] ملأَ الجِرْدَحْلَ.

- فإنْ يَكُ بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ ... ففي النَّاس بُوقاتٌ لها وطبُولُ[٤]
- تقيٌّ نقيٌّ لم يُكثِّرْ غنيمةً ... بِنَكهةِ ذي قُربى ولا بِحَقَلَّدِ
- إنَّ بَنِيَّ للئَامٌ زَهَدَهْ ... مَالي في صُدُورِهم مِن مَوْدَدَه[٥]
- رَمتنيَ ميٌّ بالهَوى رَمْيَ مُمْضَعِ ... منَ الوحشِ لَوْطٌ لم تَعُقْهُ الأوَالسُ[٦]
- بعينينِ نَجلاوينِ لم يجرِ فيهما ... ضمانٌ وجيدٌ حُلِّي الدرّ شامسُ[٧]
- عِلمي إلى علمك كالقَرارة في المُثْعنجَر[٨].
- إنّ بعضاً منَ القريضِ هُراءٌ ... ليسَ شيئاً، وبعضَه أحكامُ
فيهِ ما يجلبُ البراعةَ والفَهْـ ... ـمَ وفيهِ ما يجلبُ البِرْسامُ[٩]
ومنَ الناسِ مَن تجوزُ عليهمْ ... شُعراءٌ كأنَّها الخازِبازِ[١٠]

تمرين (أ)

- فرِّقْ بينَ التَّنافُر في الكلمة، وفي الكلام، واذكُر السبب.
- اذكرْ مثالاً للتعقيدِ اللفظيِّ، وبينْ سبَب هذا التعقيد، ثم أزِلْه.
- قد يلازِمُ تنافرُ الحروف الغرابةَ، وقد تنفردُ الغرابةُ عن التنافر. وضِّح ذلك بأمثلةٍ مُبتكرة.

---

(١) ينبع ويسيل.
(٢) مصوون: شاذة وليست فصيحة لمخالفتها للقياس الصرفي.
(٣) البعاق: مطر السحاب. والجردحل: الوادي؛ وليستا فصيحتين لغرابتهما.
(٤) بوقات: مزامير، والقياس في جمعه أبواق.
(٥) القياس مَوَدَّة بالإدغام.
(٦) لوط: لازق. والأوالس: النياق.
(٧) ضرب من القلائد.
(٨) المثعنجر: لفظة متنافرة، والمعنى: إن علمي مقيسٌ إلى علمك كالغدير الصغير موضوعاً في جانب البحر.
(٩) القريض: الشعر. والهراءُ: الكلام الفاسد الذي لا نظامَ له. وأحكام: جمع حكم، والمرادُ الحِكْمة. والبرسام: بفتح الباء وكسرها التهاب الصدر.
(١٠) الخازباز: صوتُ الذباب. وتجوز: تروح وتقبل.

- كلُّ كلام بليغٍ يكونُ فصيحاً ولا عكس. اشرح هذه العبارةَ واستشهدْ عليها بما يحضُرُك.

تمرين (ب)

مَيِّزِ الكلامَ الفصيحَ من غيرِ الفصيحِ في كلٍّ ممَّا يأتي، وبيِّنِ السبب:

- كُلَّما قَرُبَتِ النفسُ من المال شِبراً، بَعُدَتْ عن الفضيلة مِيلاً.

- شكتِ امرأةٌ صَمَعْمَعَةُ الرأس[١]، مُتَعثكلةٌ[٢] الشَّعرِ، دَرْدَبيساً[٣] حَلَّتْ بها.

نَمْ وإنْ لم أَنَمْ كرَايَ كراكا ... شاهدي الدمعُ، إنَّ ذاكُ كذاكا

فأصبحتْ بعدَ خطٍّ بهجَتِها ... كأنَّ قَفْراً رُسومها قلما[٤]

وازورَّ مَنْ كانَ له زائراً ... وعافَ عافي العُرْفِ عرفانَه[٥]

وأكرمُ من غَمامٍ عندَ مَحلٍ ... فتًى يُحيي بمدْحته الكراما[٦]

أشكوكَ كُوكَكَ كي ينفكَّ عن كَنَفي ... ولا يُنيخَ على الرُّكّابِ كَلكَلَهُ[٧]

- سأل كوفيٌّ خياطاً عن فرسٍ ومُهرٍ فقدَّهما فقال: «يا ذا النِّصاحِ - وذاتَ السَّمِّ الطاعن بها في غيرِ وغًى لغير عِداً:

هل رأيتَ الخيفانةَ القَبّاءَ يتبعُها الحاسِنُ المُرْهَف؟»[٨].

- كتب أحدُهم لصديقهِ يقول: «يا أحبَّ صواحبي وأعْزَزَهم عليَّ، يؤلمني أنْ أُصبحَ مَقْصَوِيّاً عنك هذا الإقصاي، وأنت منّي بمنزلةِ الروح من الجسد».

---

(١) الرأس الصمعمعة: الصغيرة.

(٢) أي مضفورة الشعر.

(٣) الداهية.

(٤) الرسوم: آثار الديار.

(٥) ازورَّ: أعرض. وعافَ: كره. وعافي العرف: طالب المعروف.

(٦) للمغفور له أحمد شوقي. والمحل: الجدب.

(٧) أناخَ بكلكله: هبط بمقدم صدره. وينسب البيت للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله.

(٨) النصاح: الخيط. والخيفانة: الفرسُ الطويلة. والقباءُ: الدقيقة الخصر الضامرة. والحاسن: الجميل. والمرهف: المستريح.

تمرين

- أيُّ أجزاءِ هذينِ البيتين غيرُ فصيح:

أصبحتُ كالثوبِ اللَّبيسِ قدَ اخْلَقَتْ ... جِـدَّاتُـه مـنـهُ فـعـادَ مُـذالا[١]

رمتنيَ مَيٌّ بالهوى رَمْيَ مُمْضَعِ ... منَ الوحش لَوْطٍ لَم تَعقْهُ الأوالسُ[٢]

تطبيق

ما الذي أخلَّ بفصاحةِ الكلمات فيما يلي؟

- يا نفسُ صبراً، كلُّ حيٍّ لاقِ ... وكلُّ إثنينِ إلى افتراقِ

- أبْعِدْ بَعِدْتَ بياضاً لا بياضَ لهُ ... لأنتَ أسودُ في عيني منَ الظُّلَمِ[٣]

- لا نَسبَ اليومَ ولا خُلَّةٌ ... إتَّسعَ الفتقُ على الرّاقعِ[٤]

- فأيقنتُ أنّي عندَ ذلك ثائرٌ ... غداتَئذٍ أو هالكٌ في الهوالكِ[٥]

- مَهلاً أعاذِلَ قدْ جَرّبتِ مِنْ خُلقي ... أنّي أجودُ لأقوامٍ وإن ضَنِنُوا

- تَشكو الوجَى من أظْلَلٍ وأظلَلِ ... مِن طولِ إملالٍ وظَهرِ مُمْلِلِ[٦]

---

(١) لابن الرومي. واللبيس: الملبوس. والإخلاق: البلى. والجدة: صفة الثوب الجديد. والمذال: الممتهن.

(٢) اللوط: الخفيف السريع. والأوالس: النوق السريعة.

(٣) الظلم: الليالي الثلاث آخر الشهر. ولا بياض له: لا حسن له. قاله المتنبي يخاطب الشيب، وخالفَ القياسَ في الأسود لأنه لا يُبنى اسمُ تفضيل من نحوِ سود وحُمر.

(٤) الخلّة: الصداقة. والفتق: الشق. والراقع: مصلح الفتق. وقد خالفَ القياسَ في «اتسع» حيث قطعَ همزةَ الوصل.

(٥) هوالك: فواعل، لا يطردُ في وصف العاقل كما هنا.

(٦) الوجَى: الحفا. والأظلل: باطن خف البعير. وخالفَ القياسَ بفكِّ الإدغام.

تنبيهات: (الأولُ) من عيوبِ فصاحة اللفظة المفردة كونُها مبتذلةً، أي عامّية ساقطة للفالق والشنطار ونحوهما: والابتذال ضربان:

أ- ما استعملتْه العامةُ ولم تغيره عن وضعِهِ، فسخف وانحطّتْ رُتبته، وأصبحَ استعماله لدى الخاصة معيباً. كلفظةِ البرسام في قول المتنبي:

إنّ بعضاً من القريضِ هراءٌ ... ليسَ شيئاً، وبعضَه أحكامُ

فيهِ ما يجلبُ البراعةَ والفهـ ... ـمَ وفيهِ ما يجلبُ البرسامُ

وكلفظِ الخازبازِ في قوله: =

- وقال ابن جَحْدَر:

حلفتُ بما أرْقَلَتْ حَوْلَهُ هَمَرْجَلةٌ خُلْقُها شَيْظَمُ
وما شَبْرَقَتْ من تَنوفِيّةٍ بها من وَحَى الجِنِّ زِيزَيزَمُ[1]

- وقال ذو الرُّمّة:

حتى إذا الهَيْقُ أمسى شامَ أفْرُخَهُ وهُنّ لا مُؤَيِسٌ نأياً ولا كَثَبُ[2]

- وقال أبو نواس:

يا مَنْ جَفاني ومَلاّ نَسيتَ أهلاً وسَهلا

تدريب (١)

ما الذي أخلَّ بفصاحةِ الكلمات فيما يلي؟

- قال النابغة الذُّبياني:

= ومن الناسِ مَن تجوزُ عليهم شُعراءُ كأنّها الخازَبازِ

ب - ما استعملتْه العامةُ دالاً على غيرِ ما وُضعَ له، وليس بمستقبحٍ ولا مكروهٍ كقول المتلمّس:

وقد أتناسَى الهمَّ عندَ احتضارِهِ بناجٍ عليه الصَّيْعَريّةُ مُكْدَمِ

وكقول أبي نواس:

اختصمَ الجودُ والجمالْ فيكَ فصارا إلى جِدالْ
فقالَ هذا: يمينُه لي للعرفِ والبذلِ والنوالْ
وقال هذاك: وجهُه لي للظرفِ والحسنِ والكمالْ
فافترقا فيكَ عن تراضٍ كلاهما صادقُ المقالْ

فوصفَ في الأول البعير بالصيعرية، وهي مختصة بالنوق. وفي الثاني الوجهَ بالظرف وهو في اللغة مختصٌّ بالنطق للفالق والشنطار، ونحوهما.

(الثاني) لا تستعمل الألفاظَ المبهمةَ إذا كان غرضُك التعيينَ وإحضارَ صورةِ الشيء، أو المعنى المراد في الذهن.

(الثالث) لا تستعملِ اللفظَ المشترك إلا مع قرينةٍ تُبيّن المرادَ من معانيه المشتركة.

(١) الإرقال: الإسراع. الهمرجلة: الناقة السريعة. الشيظم: الطويل الجسيم من الإبل والخيل. شبرقت: قطعت. والتنوفية والتنوفة: المفازة. الوحي: الصوت الخفي. زيزيزم: حكاية أصوات الجنّ.

(٢) الهيق: الظَّليم (ذكر النعام). شام البرق: نظر إليه أينَ يقصد، وأين يمطر. واستعمل هنا للنظر إلى الأفرخ. النأي: البعد.

obeikandl.com

أو دُمْيَةٍ في مَرْمَرٍ مَرْفوعةٍ بُنِيَتْ بآجُرٍّ يُشادُ بقَرْمَدِ[١]

- وقال أبو تمام:

لكَ هضْبَةُ الحِلْمِ التي لو وَازَنَتْ أجَأً[٢] إذا ثَقُلَتْ وكان خفيفا
وحَلاوةُ الشِّيَمِ التي لو مازَجَتْ خُلُقَ الزّمانِ الفَدْمِ عادَ ظَريفا[٣]

- وقال المتنبِّي:

يُوسِّطُه المفاوِزَ كلَّ يومٍ طِلَابُ الطّالبينَ لا الانْتظارُ

تدريب (٢)

ما الذي أخلَّ بفصاحةِ الكلماتِ فيما يأتي؟

- لم يَلْقَها إلا بشكّةِ باسِلٍ يخشى الحوادِثَ حازمٌ مُسْتَعْدِدُ[٤]
- وأصبحَ مُبْيَضَّ الضَّريبِ كأنّهُ على سَرَواتِ البَيْتِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[٥]
- فأَيْقَنْتُ أني عندَ ذلك ثائرٌ غداتَئذٍ أو هالكٌ في الهَوالكِ[٦]
- ومَلْمومَةٍ سَيْفيّةٍ ربَعِيّةٍ يصيحُ الحصا فيها صياحَ اللّقالقِ[٧]
- وألقى بصحراءِ الغَبيطِ بَعَاعَهُ نُزولَ اليَماني ذو العِيابِ المُحَمِّلِ[٨]

---

(١) الدمية: الصورةُ المنقوشة المزينة فيها حمرة كالدم. تضرب مثلاً في الحسن. المرمر: الرخام. الآجرّ: ما يبنى به. القرمد: بفتح القاف ما يُطلى به للزينة، وقيل: حجارة لها خروق يوقَدُ عليها فتنضجُ ويُبنى بها، وقيل: الخزف المطبوخ.

(٢) اسم جبل.

(٣) الهضبة: الرابية. الفدم: الغليظ، الجافي. وصف الشيم بالحلاوة وهي خاصة بالعينين، ووصفَ خلقَ الزمان بالظرف وهو خاصٌّ بالنطق.

(٤) الشكة: الخصلة. الباسل: الشجاع.

(٥) قائله الفرزدق. الضريب: الشبيه والمثيل. سَروات البيت: أعاليه. مندف: مندوف، من قولهم: ندف القطنَ، ضربه بالمندف.

(٦) الثائر: الذي لا يُبقي على شيء حتى يُدرك ثأره.

(٧) قائله المتنبي. ملمومة: كتيبة مجتمعة. سيفية: نسبة لسيف الدولة. ربعية: نسبة إلى ربيعة، قبيلته. اللقالق: جمع لقلقة وهي صوتُ اللقلاق (طائر)، أو هي كل صوت في اضطراب وحركة.

(٨) قائله امرؤ القيس. الغبيط: الأرض المطمئنة، وقيل: الواسعة المستوية يرتفع طرفاها. البعاع: ثقل السحاب من المطر، يقال: بعَّ السحابُ يبعُّ بعّاً وبعاعاً: إذا ألحَّ بمكان، =

- ليس التّعلُّلُ بالآمالِ من أرَبي ولا القُنوعُ بضَنْكِ العَيْشِ منْ شِيَمي[1]

* * *

= وألقى عليه بعاعه أي ثقله. العياب: جمع عَيبة وهي ما يجعل فيه الثياب. يقال: جعل الرجلُ خيرَ متاعهِ في عَيبته. والمحمل: يروى بكسر الميم على جعل اليمانيُّ رجلاً، وبفتحها على جعله جملاً. والمعنى أنّ هذا المطر نزلَ بهذا المكان ولم يبرحْ كما نزل الرجلُ في ذلك الموضع. وضمير «ألقى» يرجعُ إلى السحاب فيما قبله.

(١) القنوع: المسألة، يقال: قنع قنوعاً، إذا سأل. والمرادُ القناعة.

obeikandl.com

فصاحة الكلام

فصاحةُ الكلام: سلامتُه بعدَ فصاحةِ مُفرداتهِ ممّا يُبْهِمُ معناه، ويَحولُ دونَ المراد منه،[1] وتتحقّق فصاحتُه بخلوِّهِ من ستة عيوب:

(١) تنافُرُ الكلماتِ مُجتمعةً. (٢) ضعفُ التأليف. (٣) التّعقيدُ اللفظي. (٤) التّعقيدُ المعنوي. (٥) كثرةُ التكرار[2]. (٦) تتابُعُ الإضافات.

الأوّل - **تنافُر الكلماتِ مُجتمعة**: بأن تكونَ الكلماتُ ثقيلةً على السّمع من تركيبها مع بعضها، عَسِرةَ النُّطق بها مُجتمعةً على اللسان. (وإنْ كانَ كلُّ جزءٍ منه على انفراده فصيحاً).

والتّنافُرُ يَحصُلُ: إمّا بتجاوُزِ كلماتٍ متقاربةِ الحروفِ، وإمّا بتكريرِ كلمةٍ واحدة. والتنافر نوعان:

أ - شديدُ الثِّقل، كالشطر الثاني في قوله:

---

(١) المرادُ بفصاحة الكلام تكوُّنُه من كلماتٍ فصيحةٍ يسهلُ على اللسان النطقُ بها لتآلفها. ويسهلُ على العقل فهمُها لترتيبِ ألفاظها وفقَ ترتيب المعاني.
ومرجعُ ذلك الذوقُ السليمُ والإلمامُ بقواعد النحو، بحيثُ يكون واضحَ المعنى، سهلَ اللفظ، حسن السبك، ولذلك يجب أن تكون كلُّ لفظةٍ من ألفاظهِ واضحةَ الدلالة على المقصود منها، جاريةً على القياس الصرفيّ، عذبةً سلسلة، كما يكون ترتيب الكلمات جارياً على القواعدِ النحوية، خالياً من تنافر الكلمات مع بعضها، ومن التعقيد. فمرجعُ الفصاحة سواءٌ في اللفظة المفردة، أو في الجمل المركبة إلى أمرين: مراعاة القواعد، والذوق السليم. وتختلف فصاحة الكلام أحياناً باختلافِ التعبيرِ عما يدورُ بالنفسِ من المعاني اختلافاً ظاهراً. فتجدُ في عباراتِ الأدباء من الحسن والجودة ما لا تجدُ في تعبيرِ غيرهم، معَ اتّحادِ المعنى الذي يعبّر عنه. ويختلف الأدباءُ أنفسُهم في أساليبهم، فقد يعلو بعضُهم في أسلوبه، فتراه يسيلُ رقّةً وعذوبةً. ويصل إلى القلوبِ فيبلغُ منها ما يشاءُ أن يبلغ. وذلك نوعٌ من البيانِ يكادُ يكون سحراً، وقد يكون دونَ هذه المنزلة قليلاً أو كثيراً. وهو مع ذلك من فصيح القول وحسنِ البيان.

(٢) (كثرة التكرار، وتتابع الإضافات) أقول الحق: إنّ هذين العيبين قد احترز عنهما بالتنافر. على أنّ بعضهم أجازهما لوقوعهما في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس: ٧] الآيات، وفي قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢].

وقَبْرُ حرْبٍ بمكانٍ قَفْرِ ... وليسَ قُربَ قبرِ حَرْبٍ قبرُ[١]

ب - خفيف الثِّقل كالشطر الأول في قول أبي تمام:

كريمٌ متى أمْدَحْه أمْدحهُ والورى ... معي، وإذا ما لُمْتُهُ لُمْتُه وحدي[٢]

الثاني - **ضعف التأليف** بأن يكون الكلامُ جارياً على خلافِ ما اشتَهر من قوانين النحو المعتبرة عند جُمهور العلماء، كوصل الضميرين، وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف. مع أنه يجبُ الفصلُ في تلك الحالة، كقول المتنبي:

خَلَتِ البلادُ من الغَزَالةِ[٣] لَيْلَها ... فأعاضَهاكَ اللهُ كيلا تحزَنا

وكالإضمار قبلَ ذكر مرجعه لفظاً ورُتبة وحُكماً في غيرِ أبوابه[٤] نحو:

ولو أن مجداً أخلدَ الدَّهرَ واحداً ... منَ الناسِ أبقى مجدُه الدّهرَ مُطعما[٥]

---

(١) حرب بن أمية: قتله قائلُ هذا البيت، وهو هاتفٌ من الجنّ صاحَ عليه. وقفر: خالٍ من الماء والكلأ. وقبر: اسم ليس مؤخر، وقرب خبر مقدم. قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشادُه ثلاثَ مرات متوالية إلا ويغلطُ المنشدُ فيه، لأنّ نفسَ اجتماعِ كلماتِهِ وقربَ مخارجِ حروفها، يُحدثان ثقلاً ظاهراً، مع أنّ كلّ كلمة منه لو أخذتْ وحدَها ما كانت متكرهةً ولا ثقيلة.

(٢) أي هو كريم، وإذا مدحته وافقني الناسُ على مدحه، ويمدحونه معي لإسداءِ إحسانهِ إليهم كإسدائه إليّ. وإذا لمتُه لا يوافقني أحدٌ على لومه، لعدمِ وجودِ المقتضى للوم فيه. وآثَرَ لمتُه على هجوتُه مع أنه مقابلُ المدح إشارةً إلى أنّه لا يستحقّ الهجوَ. ولو فرط منه شيء فإنما يُلامُ عليه فقط. والثقلُ في قوله: «أمدحه» لما بين الحاء والهاء من التنافر، للجمع بينهما، وهما من حروف الحلق. كما ذكره الصاحب إسماعيل بن عباد.

(٣) الغزالة: هي الشمس.

(٤) المجموعة في قول بعضهم:

ومرجعُ الضمير قد تأخّرا ... لفظاً ورتبةً وهذا حصرا
وفي بابِ نعمَ وتنازُعِ العملْ ... ومضمرِ الشأن وربٍّ والبدلْ
ومبتدأ مفسَّرٌ بالخبرْ ... وبابُ فاعلٍ بخلفٍ فاخبرْ

واعلمْ أن ضعفَ التأليف ناشئ من العدول عن المشهور إلى قولٍ له صحةٌ عند بعض أولي النظر. أما إذا خالف المجمعَ عليه كجرِّ الفاعل ورفعِ المفعول ففاسدٌ غير معتبر، والكلام في (تركيب له صحة واعتبار).

(٥) فإن الضمير في (مجده) راجع إلى (مطعما)، وهو متأخرٌ في اللفظ كما يرى وفي الرتبة لأنه مفعولٌ به. فالبيتُ غير فصيح لمخالفته قواعدَ النحو. ومطعم: أحد رؤساء المشركين، وكان يدافع عن النبيّ ﷺ. ومعنى البيت: أنه لو كان مجدُ الإنسان سبباً لخلوده في هذه =

الثالث - **التعقيد اللّفظي**: هو كونُ الكلامِ خفيَّ الدلالة على المعنى المراد به. بحيثُ تكون الألفاظُ غيرَ مرتّبةٍ على وفقِ ترتيب المعاني.

(وينشأ ذلك التّعقيدُ من تقديم أو تأخيرٍ أو فصلٍ بأجنبيّ بينَ الكلماتِ التي يجبُ أن تتجاورَ ويتصلَ بعضُها ببعض)[١]، وهو مذموم، لأنه يُوجبُ اختلالَ المعنى واضطرابَه، من وضع ألفاظه في غيرِ المواضعِ اللائقة بها، كقول المتنبي:

جَفَختْ وهم لا يَجْفَخونَ بها بهم شِيَمٌ على الحسبِ الأغرِّ دَلائلُ[٢]

أصله، جفخت: افتخرت. بهم شِيَم: دلائلُ على الحسَبِ الأغرِّ وهم لا يجفخون بها.

الرابع - **التّعقيد المعنوي**: كونُ التركيب خفيَّ الدَّلالة على المعنى المراد،[٣] بحيثُ لا يُفهم معناه إلا بعد عناءٍ وتفكيرٍ طويل.

وذلك لخللٍ في انتقالِ الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المقصود بسببِ إيرادِ اللّوازم البعيدة، المفتقرةِ إلى وسائطَ كثيرة، مع عدم ظهورِ القرائنِ الدالّة على المقصود «بأن يكون فهمُ المعنى الثاني من الأول بعيداً عن الفهم عُرفاً»[٤]. كما في قول عبّاس بن الأحنف:

سأطلبُ بُعْدَ الدّارِ عنكم لِتقْرُبوا وتَسكُبُ عينايَ الدّموعَ لِتَجْمُدا[٥]

= الدنيا لكان (مطعم بن عدي) أولى الناس بالخلود لأنه حاز من المجد ما لم يحُزْ غيرُه، على يد صاحب الشريعة.

(١) وذلك كالفصل بأجنبيّ بين الموصوف والصفة، وبين البدل والمبدل منه، وبين المبتدأ والخبر، وبين المثنى والمثنى منه، ما يسبب ارتباكاً واضطراباً شديداً.

(٢) فلفظة جفخت مرة الطعم، وإذا مرت على السمع اقشعرَّ منها، ولو استعمل (المتنبي) عوضاً عن جفخت (فخرت) لاستقامَ البيتُ، وحظيَ في استعماله بالأحسن.

(٣) بحيث يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعملُ فيه كلماتٍ في غيرِ معانيها الحقيقية، فيسيء اختيارَ الكلمات للمعنى الذي يريدُه. فيضطربُ التعبيرُ، ويلتبسُ الأمرُ على السامع، نحو: نشرَ الملك ألسنتَه في المدينة، يريد: جواسيسَه. الصوابُ: نشر عيونه.

(٤) فالمناطُ في الصعوبة عدمُ الجريان على ما يتعاطاه أهلُ الذوقِ السليم. لا كثرة الوسائط الحسية، فإنها قد تكثرُ من غيرِ صعوبة، كما في قولهم: فلانٌ كثير الرماد، كناية عن المضياف، فإنّ الوسائطَ كثيرةٌ فيه ولكن لا تعقيد.

(٥) تسكب: بالرفع عطفٌ على «أطلبُ»، وبالنصب عطفٌ على «بُعدَ» من قَبيل عطفِ الفعل =

جعلَ سكبَ الدموعِ كنايةً عمّا يلزمُ في فراقِ الأحبّة من الحزنِ والكمد، فأحسن وأصاب في ذلك. ولكنّه أخطأ في جعلِ جمودِ العينِ كنايةً عمّا يوجبُه التلاقي من الفرح والسُّرور بقُرب أحبّته، وهو خَفيٌّ وبعيدٌ،[١] إذ لم يُعرف في كلام العرب عند الدّعاءِ لشخصٍ بالسُّرور أن يقال له: جَمُدتْ عينُك، أو لا زالتْ عينُك جامدةً. بل المعروفُ عندَهم أنّ جمودَ العين إنّما يُكْنى به عن عدمِ البكاء حالةَ الحُزنِ، كما في قول الخنساء:

أعَيْنَيَّ جُودا ولا تَجْمُدا ... ألا تبكيانِ لصَخرِ النّدى

وكما في قول أبي عطاء يرثي ابنَ هُبيرة:

إلا إنّ عيناً لم تَجُدْ يومَ واسطٍ ... عليكَ بجاري دَمْعِها لَجَمودُ[٢]

وهكذا كلُّ الكنايات التي تستعملُها العربُ لأغراضٍ، ويغيِّرُها المتكلم، ويريد بها أغراضاً أخرى تعتبر خروجاً عن سُنن العرب في استعمالاتهم، ويُعدُّ ذلك تعقيداً في المعنى، حيث لا يكونُ المرادُ بها واضحاً.

الخامس - **كثرةُ التكرار**:[٣] كونُ اللفظِ الواحد اسماً كان، أو فعلاً، أو حرفاً.

= على اسمٍ خالصٍ من التأويل بالفعل. والمرادُ طلبُ استمرار السكب، لا أصلُه لئلا يلزمَ تحصيلُ الحاصل.

(١) ووجه الخفاء والبعد: أن أصلَ معنى جمودِ العين جفافُها من الدموع عند إرادتها منها، والانتقالُ منه إلى حصول السرور بعيد، لأنه يحتاج إلى وسائطَ بأن ينتقلَ من جمودِ العين إلى انتفاء الدمع منها، حالَ إرادة البكاء، ومنه إلى انتفاء الدمع مطلقاً، ومنه إلى انتفاء الحزن ونحوه. فإن ذلك هو السبب غالباً في الدمع، ومن انتفاء الحزنِ ونحوه إلى السرور. ولا يخفى أن الشاعرَ قد طوى وحذفَ جميعَ هذه الوسائط فأورثَ بطءَ الانتقال من المعنى الأصلي الحقيقي إلى المعنى المراد. وخالف حينئذٍ أسلوبَ البلغاء، فنشأ من ذلك التعقيدُ المعنوي.

واعلمْ أن الشاعرَ أرادَ أن يرضى بالبعد والفراق، ويعوِّدَ نفسَه على مقاساةِ الأحزان والأشواق، ويتحمّل من أجلها حزناً يفيضُ من عينيه الدموع. ليتوصّل بذلك إلى وصلٍ يدوم، ومسرةٍ لا تزول، على حدّ قول الشاعر:

ولطالما اخترتُ الفراقَ مغالطاً ... واحتلْتُ في استثمارِ غَرْسِ وِدادي

ورغبتُ عن ذكرِ الوصالِ لأنها ... تُبنى الأمورُ على خلافِ مُرادي

(٢) أي: لبخيلة بالدموع.

(٣) المرادُ بالكثرةِ هاهنا ما فوق الواحدة، فذكر الشيء ثانياً تكرار. وذكره ثالثاً كثرة، وإنما شُرطتِ الكثرةُ لأن التكرارَ بلا كثرةٍ لا يخلُّ بالفصاحة، وإلا لَقَبُحَ التوكيدُ اللفظي.

وسواءٌ أكانَ الاسم ظاهراً، أو ضميراً، تعدّد مرةً بعد أُخرى بغيرِ فائدة، كقوله:

إنّي وأسطارٍ سُطِرْنَ سَطْرا لَقائلٌ: يا نصرُ نصرٌ نصرا

وكقول المتنبي:

أقِلْ أنِلْ أُنْ[1]صُنِ احمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اغفرْ أذْنِ سُرَّ صِلِ

وكقول أبي تمام في المديح:

كأنّه في اجتماعِ الرُّوحِ فيه لهُ في كلِّ جارحةٍ من جسمهِ رُوحُ

السادس - **تتابع الإضافات**: كونُ الاسم مضافاً إضافةً متداخلة غالباً، كقول ابن بابك:

حمامةَ جَرعا حَوْمةِ الجَنْدَلِ اسجَعي فأنتِ بمرْأى مِن سُعادَ ومَسْمعِ[2]

وملخصُ القول: إنّ فصاحةَ الكلام تكونُ بخلوِّهِ من تنافُرِ كلماتهِ، ومن ضعفِ تأليفه، وتعقيدِ معناهُ، ومن وضعِ ألفاظه في غير المواضعِ اللائقة بها.

تطبيق

بيِّن العيوبَ التي أخلَّتْ بفصاحةِ الكلام فيما يأتي:

- لكَ الخيرُ غيري رامَ من غيرِكَ الغنى وغيري بغيرِ اللاذقيّةِ لاحِقُ

- وازورَّ من كانَ له زائراً وعافَ عافي العُرفِ عرفانَهُ[3]

---

(١) أي: ارفِقْ.

(٢) ففيه إضافة حمامة إلى جرعا، وهو تأنيثُ الأجرع. وهو المكان ذو الحجارة السود، أو مكانُ الرمل الذي لا ينبتُ شيئاً. و«جرعا» مضاف إلى «حومة»، وهي معظم الشيء، و«حومة» مضاف إلى «الجندل» بسكونِ النون وهو الحجر، والمرادُ به هنا مكان الحجارة، فهو بمعنى الجندل بفتح النون وكسر الدال: وقوله:

فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

أي أنتِ بحيثُ تراكِ سعاد وتسمعُ كلامك. يقول: اسجَعي يا حمامةُ أرضَ قفرةٍ سبخةٍ، فإنّ سعادَ تراكِ وتسمعكِ.

(٣) العيبُ في تنافُرِ الكلمات، والمعنى انحرفَ عنه مَن كان يزوره، وكره طالبُ الإحسان معرفته.

- أنّى يكونُ أبا البرايا آدمٌ ... وأبوكَ والثقلانِ أنتَ محمّدُ[١]
- ومن جاهلٍ بي وهْوَ يجهَلُ جهلَهُ ... ويجهلُ عِلمي أنه بيَ جاهلُ
- وقَلْقلتُ بالهمِّ الذي قَلقلَ الحَشا ... قَلاقلَ هَمٌّ كلُّهنّ قَلاقِلُ
- وما مثلُهُ في النّاسِ إلا مُمَلَّكاً ... أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يقاربُهْ[٢]
- إلى مَلكٍ ما أمُّه من مُحاربٍ ... أبوهُ ولا كانتْ كُلَيْبٌ تُصاهرُهْ[٣]
- ليسَ إلاكَ يا عليُّ هُمامٌ ... سيفُه دون عِرضهِ مَسْلولُ[٤]
- كسا حِلْمُه ذا الحلمِ أثوابَ سُؤدُدٍ ... ورقّى نَداهُ ذا النّدى في ذُرا المجدِ[٥]
- مَن يهتدي في الفعلِ ما لا يُهتدى ... في القولِ حتّى يفعلَ الشُّعراءُ[٦]
- جزى بنوهُ أبا الغَيْلانِ عنْ كِبَرٍ ... وحُسنِ فعلٍ كما يُجزى سِنِمّارُ[٧]
- وما من فتًى كُنّا من النّاس واحداً ... به نبتغي منهمْ عَديلاً نُبادِلُهْ[٨]
- لَمّا رأى طالبوه مُصعباً ذُعروا ... وكادَ، لو ساعدَ المقدورُ، ينتصرُ

---

(١) يريدُ: كيف يكون أبا البرايا وأبوك محمدٌ وأنتَ الثقلانِ أي الإنسُ والجنّ؟ يعني أنه قد جمع ما في الخليقة من الفضل والكمال. وقد فصلَ بين المبتدأ والخبر وهما أبوك محمد، وقدّم الخبرَ على المبتدأ تقديماً قد يدعو إلى اللبس في قوله: «والثقلان أنت». على أنه بعدَ هذا التعسُّفِ لم يَسلم كلامُه من سخفٍ وهَذر.

(٢) يريدُ الفرزدقُ مدحَ إبراهيمَ بنِ إسماعيلَ خالَ هشام بن عبد الملك، وما مثلُه في الناس حيّ «أحد» يقاربه «يشابهه» إلا مملّكاً. أبو أمّه أبوه، فقدّم المستثنى على المستثنى منه، وفصل بين «مثل» و«حي» وهما بدلٌ ومبدلٌ منه وبينَ أبو أمه وأبوه وهما مبتدأ وخبر. وبين حيّ ويقاربه وهما نعتٌ ومنعوت، ولا يفصلُ بين كلٍّ منهما بأجنبيٍّ. والمعنى: وليس مثلُ إبراهيم في الناس أحدٌ يشبهه في الفضائل إلا ابنُ أخته هشام. فضميرُ «أمه» عائد على المملَّك، وضميرُ «أبوه» عائد على إبراهيم الخال.

(٣) يريد: إلى ملك أبوه ليست أمُّه من محارب، أي ما أمُّه منهم.

(٤) فيه ضعفُ تأليفٍ حيثُ وضعَ الضميرَ المتصلَ بعد إلا، وحقُّه وضعُ المنفصل (إياك).

(٥) أي مَن كان دَيْدَنَه الحلمُ والكرمُ حازَ السيادة والرِّفعة. فالضميرُ في «حلمه» لذي الحلم المذكور بعد. فهو المتأخر لفظاً ومعنى وحكماً. وكذا الضميرُ في «نداه» لذي الندى.

(٦) أي يهتدي في الفعل ما لا يهتديه الشعراء في القول حتى يفعل.

(٧) العيبُ فيه من جهةِ أنّ ضميرَ بنوه عائدٌ على «أبا الغيلان» وهو متأخر لفظاً ورتبة. لأنه مفعول ورتبتُه التأخُّر عن الفاعل، وسنمار: رجلٌ روميّ بنى قصرَ الخَوَرْنق بظهرِ الكوفة للنعمان بن امرئ القيس ملكِ الحيرة، فلما فرغَ منه ألقاهُ النعمانُ من أعلاه، فخرَّ ميتاً لئلا يَبنيَ لغيره مثلَه.

(٨) أي: وما من فتًى من الناسِ كنا نبتغي واحداً منهم عديلاً نبادله به.

- نشر الملكُ ألسنتَه في المدينة، مريداً جواسيسَه.

أي، والصوابُ: نشر الملك عيونه.[١]

- لو كنتَ كنتَ كتمتَ السِّرَّ كنتَ كما ... كنّا وكنتَ ولكنْ ذاكَ لم يكُنِ
- ألا ليتَ شِعْري هل يَلومَنَّ قومُهُ ... زهيراً على ما جرَّ من كلِّ جانبِ؟
- بدانٍ بعيدٍ مُحبٍّ مُبغضٍ بَهِجٍ ... أغرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ[٢]
- لأنتَ أسودُ في عيني من الظُّلَمِ[٣]
- وتُسعِدُني في غَمْرةٍ بعدَ غمرةٍ ... سَبوحٌ لها منها عليها شواهِدُ[٤]
- وليستْ خُراسانُ التي كان خالدٌ ... بها أَسَدٌ إذ كان سيفاً أميرُها[٥]
- والشمسُ طالعةٌ ليستْ بكاسفةٍ ... تبكي عليك نُجومَ الليلِ والقمرا[٦]
- أرضٌ لها شرَفٌ سِواها مثلُها ... لو كانَ مثلُكَ في سِواها يوجَدُ
- والمجدُ لا يَرضى بأنْ تَرضى بأنْ ... يَرضى المعاشرُ منك إلا بالرِّضا
- في رفعِ عَرْشِ الثَّرْ ... عِ مثلُك يشرعُ
- ومن لم يذُدْ عن حوضهِ بسلاحهِ ... يُهدَّمْ، ومَن لم يَظلم النّاسَ يُظلَمِ[٧]
- متحيِّرينَ فباهِتٌ متعجِّبٌ ... ممّا يَرى أو ناظِرٌ متأمِّلُ[٨]
- فأصبحتْ بعدَ خَطٍّ بهجتِها ... كأنّ قَفْراً رسومُها قلما[٩]
- وما أرْضَى لِمُقلتهِ بحُلمٍ ... إذا انتبهتْ تُوَهِّمُهُ ابتِشاكا[١٠]

---

(١) لأن الذي يُتوصل به إلى الأخبار عادة إنّما هو العيونُ لا الألسنة.

(٢) فيه توالي الصفات، وذلك مما يُحدثُ في الكلام ثقلاً، وهذا مما يؤخذ على المتنبي.

(٣) والقياسُ: أشدُّ سواداً لأنه لا يُبنى أفعل التفضيل من الأفعال الدالة على الألوان.

(٤) معنى البيت: وتسعدني بالفوز بالغنائم والنجاة في شدةٍ بعد شدةٍ فرسٌ سَبوحٌ، أي حسَنةُ العَدْو لا تُتعبُ راكبَها، فكأنما تسبحُ على الماء.

(٥) خالد وأسدٌ علَمان. والتعقيدُ فيه نشأ من تقديم أسدٍ الذي هو جزء مما أضيف إليه إذ.

(٦) أي: والشمسُ ليست بكاسفةٍ نجومَ الليل وهي تَبكي عليك، والقمرُ يبكي عليك أيضاً. ففيه تعقيد نشأ من الفصلِ بينَ الصفةِ التي هي كاسفة، ومفعولها الذي هو نجومٌ بجملة «تبكي عليك».

(٧) فيه تعقيد معنوي، حيث كنّى بالظلم عن المحافظة على الحقوق. وهو بعيد.

(٨) باهتٌ بمعنى مدهوش، لغة رديئة واللفظُ العربي المستعمل بهتَ الرجلُ، فهو مبهوت.

(٩) أي فأصبحتْ بعد بهجتها قفراً، كأن قلماً خطَّ رسومها.

(١٠) المقلة: العين. والحلم: الرؤيا التي يراها النائم. والابتشاك: الكذب. قال الصاحب: لم يسمع الابتشاك في شعرٍ قديم ولا محدث.

فصاحةُ المتكلِّم

فصاحةُ المتكلِّم: عبارةٌ عن الملَكة[1] التي يقْتَدِرُ بها صاحبُها على التّعبير عن المقصودِ بكلامٍ فصيحٍ في أيِّ غرضٍ كان.

فيكونُ قادراً بصفةِ الفصاحةِ الثّابتة في نفسه على صياغةِ الكلام، متمكِّناً من التّصرف في ضروبه، بصيراً بالخوضِ في جهاتهِ ومناحيهِ.

أسئلةٌ على الفصاحة يُطلب أجوبتُها

ما هي الفصاحة لغة واصطلاحاً؟

ما الذي يوصَفُ بالفصاحة؟

ما الذي يُخرجُ الكلمةَ عن كونها فصيحةً؟

ما هي فصاحةُ المفرد؟ ما هو تنافُرُ الحروف، وإلى كم ينقسم؟

ما هي الغرابةُ، وما موجِبُها؟ ما هي مخالفةُ القياس؟ ما هي الكراهةُ في السمع؟

ما هي فصاحةُ الكلام؟ وبمَ تتحقَّقُ؟ ما هو تنافُرُ الكلمات؟ وما موجبُهُ؟ وإلى كم يتنوَّع؟ ما هو ضعفُ التأليف؟ ما هو التعقيد؟ وإلى كم ينقسم؟ ما هي كثرةُ التكرار؟ ما هو تتابعُ الإضافات؟ ما هي فصاحةُ المتكلم؟

---

(١) أي كيفيةٌ وصفةٌ من العلم راسخةٌ وثابتةٌ في نفسِ صاحبها يكونُ قادراً بها على أن يعبرَ عن كلِّ ما قصدَه من أيِّ نوع من المعاني كالمدح والذم والرثاء وغير ذلك، بكلام فصيح، فإذاً المدرُ على الاقتدارِ المذكورِ سواءٌ وجدَ التعبيرُ أو لم يوجد، وأنّ مَن قدرَ علىَ تأليفِ كلام فصيح في نوعٍ واحد من تلك المعاني لم يكن فصيحاً، وأنه لا يكونُ فصيحاً إلا إذا كان ذا صفةٍ من العلم راسخةٍ فيه وهي المسماةُ «بالملكة»، يقتدرُ بها على أن يعبرَ عن أيِّ معنى قصدَه بكلام فصيح، أي خالٍ من الخلل في مادته، «وذلك بعدم تنافُرِ كلماته» وعن الخلل في تأليفه، «وذلك بعدم ضعف تأليفه»، وعن الخلل في دلالته علَى المعنى التركيبي «وذلك بعدم التعقيد اللفظيِّ والمعنوي». فإنْ كان شاعراً اتسعَ أمامَه مَيدانُ القول في جميع فنون الشعر، من نسيب وتشبيب ومديح وهجاء ووصف ورثاء وعتاب واعتذار وأشباه ذلك. وإن كان ناثراً حاكَ الرسائلَ المحلاة. والخطَب الممتعة الموشّاة، في الوعظ، والإرشاد، والحفل، والأعياد.

البلاغة

البلاغةُ في اللغة: الوصولُ والانتِهاء، يقالُ: بلغَ فلانٌ مرادَه، إذا وصلَ إليه، وبلغَ الركبُ المدينة، إذا انتهى إليها[١]. ومبلغُ الشيء منتهاه.

وبلغَ الرجل بلاغة، فهو بليغ: إذا أحسنَ التعبيرَ عمّا في نفسه.

وتقعُ البلاغة في الاصطلاح: وصفاً للكلام، والمتكلِّم فقط. ولا توصَفُ «الكلمة» بالبلاغة، لقصورها عن الوصولِ بالمتكلِّم إلى غرضِهِ، ولعدمِ السماع بذلك.

---

(١) البلاغةُ هي تأديةُ المعنى الجليل واضحاً بعبارةٍ صحيحة فصيحة، لها في النفس أثرٌ خلابٌ، مع ملاءمةِ كلِّ كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاصِ الذين يخاطبون. والبلاغةُ مأخوذة من قولهم: بلغتُ الغايةَ، إذا انتهيتَ إليها، وبلَّغتُها غيري. والمبالغة في الشيء الانتهاءُ إلى غايته. فسمِّيتِ البلاغةُ بلاغةً لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. وسُمِّيت البُلغةُ بُلغةً لأنّك تتبلّغُ بها. فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضاً. ويقال: الدنيا بلاغٌ، لأنّها توَدّيكَ إلى الآخرة. والبلاغُ أيضاً التبليغُ، ومنه: ﴿هذا بلاغٌ للناس﴾، أي تبليغ. ويقال: بلُغَ الرجلُ بلاغةً، إذا صار بليغاً. كما يقال: نَبُلَ الرجلُ نبالةً، إذا صار نبيلاً. قال أعرابيّ: البلاغةُ التقرُّبُ من البعيد، والتباعُدُ من الكُلفة، والدلالةُ بقليلٍ على كثير. وقال عبد الحميد بنُ يحيى: «البلاغةُ تقريرُ المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام». وقال ابنُ المعتزّ: «البلاغةُ البلوغُ إلى المعنى ولم يَطُلْ سفرُ الكلام». وقال العتّابي: «البلاغةُ مدُّ الكلام بمعانيهِ إذا قصُر، وحُسْنُ التأليف إذا طال». وقال عبدُ الله بن المقفّع: «البلاغةُ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكونُ في الإشارة، ومنها ما يكونُ في الحديث، ومنها ما يكونُ في الاستماع، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكونُ ابتداءً، ومنها ما يكونُ جواباً، ومنها ما يكونُ خُطباً، ومنها ما يكونُ رسائلَ. فعامةُ هذه الأبواب الوحيُ فيها والإشارةُ إلى المعنى أبلغُ. والإيجازُ هو البلاغة. فالسكوتُ يُسمّى بلاغاً مجازاً. وهي في حالةٍ لا ينجعُ فيها القولُ، ولا ينفعُ فيها إقامة الحُجج، إمّا عند جاهل لا يفهمُ الخطابَ، أو عندَ وضيع لا يرهبُ الجواب، أو ظالم سليطٍ يحكمُ بالهوى، ولا يرتدعُ بكلمة التقوى. وإذا كانَ الكلام يُعرّي من الخير، أو يجلبُ الشرَّ فالسكوتُ أولى». وقال الرشيدُ: البلاغةُ: التباعُدُ من الإطالة، والتقرب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. قال أحد الأدباء: أبلغُ الكلام ما حسُنَ إيجازُه، وقلّ مجازُه، وكثُرَ إعجازُه، وتناسبَتْ صُدورُه وأعجازُه.

بلاغة الكلام

البلاغةُ في الكلام: مطابقتُه لما يَقتضيه حالُ الخطاب،[١] مع فصاحة ألفاظه: مفردِها ومركَّبها.

والكلام البليغُ: هو الذي يُصوِّرُه المتكلِّمُ بصورةٍ تناسبُ أحوالَ المخاطبين.

وحال الخطابِ «ويسمى بالمقام» هو الأمرُ الحاملُ للمتكلمِ على أن يُورِدَ عبارتَه على صورة مخصوصةٍ دونَ أخرى.

والمُقْتضى، «ويسمّى الاعتبارَ المناسبَ»: هو الصُّورة المخصوصةُ التي تُورَدُ عليها العبارة.

مثلاً: المدحُ، حالٌ يدعو لإيرادِ العبارةِ على صورةِ الإطنابِ.

وذكاءُ المخاطب، حالٌ يدعو لإيرادِها على صورة الإيجاز.

فكلٌّ من المدحِ والذَّكاء «حال ومقام».

وكلٌّ من الإطناب والإيجاز «مُقتضَى».

وإيرادُ الكلامِ على صورةِ الإطناب[٢] أو الإيجاز «مُطابَقةٌ للمُقتضى».

---

(١) مقتضى الحال: هو ما يدعو إليه الأمر الواقعُ، أي ما يستلزمُه مقامُ الكلام، وأحوالُ المخاطب من التكلُّم على وجه مخصوص. ولن يطابَقَ الحالُ إلا إذا كان وفقَ عقول المخاطبين، واعتبار طبقاتهم في البلاغة، وقوتهم في البيان والمنطق، فللسُّوقةِ كلامٌ لا يصلحُ غيرُه في موضعه، والغرضُ الذي يُبنى له، ولسراةِ القوم والأمراء فنٌّ آخرُ لا يسدُّ مسدَّه سواه، من أجل ذلك كانتْ مراتبُ البلاغةِ متفاوتةً، بقدْر تفاوُتِ الاعتباراتِ والمقتضيات. وبقدرِ رعايَتِها يرتفعُ شأنُ الكلام في الحسن والقبح، ويرتقي صُعداً إلى حيثُ تنقطع الأطماع، وتخورُ القوى، ويعجزُ الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً، وتلك مرتبةُ الإعجاز التي تخرسُ عندها ألسُنُ الفصحاء لو تاقَتْ إلى العبارة، وقد عُرف بالخبر المتواترِ أنّ القرآن الكريم نزل في أرقى العصور فصاحةً، وأجملِها بلاغةً. ولكنه سدَّ السبلَ أمامَ العرب عندما صاحَ عليهم صيحةَ الحق، فوَجَفتْ قلوبُهم، وخَرِستْ شقاشِقُهم، مع طول التحدّي وشدِّ النكير. وحَقَّتْ للكتاب العزيز الكلمة العليا.

(٢) فإنّ اختلافَ هذه الظروف يَقْتضي هيئةً خصوصيةً من التعبير. ولكلِّ مقام مقال، فعلى =

وليستِ البلاغةُ[١] إذاً مُنحصرةً في إيجادِ معانٍ جليلة، ولا في اختيار ألفاظٍ واضحة جزيلة. بل هي تتناولُ معَ هذين الأمرين أمراً ثالثاً: هو إيجادُ أساليبَ مُناسبةٍ للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ، مما يُكسِبُها قوّةً وجمالاً.

وملخصُ القول: إنّ الأمرَ الذي يَحْملُ المتكلِّمَ على إيرادِ كلامهِ في صورةٍ دونَ أخرى، يُسمّى «حالاً». وإلقاءَ الكلام على هذه الصُّورة التي اقتضاها الحال يُسمى «مُقْتضى». والبلاغة هي مطابقةُ الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال.

بلاغة المتكلم

بلاغةُ المتكلّم: هي ملَكةٌ في النفس[٢] يقتدرُ بها صاحبُها على تأليف كلامٍ بليغ، مطابقٍ لمقتضى الحال، مع فصاحتهِ في أيِّ معنًى قصَده.

= المتكلم ملاحظةُ المقام أو الحال. وهو الأمرُ الذي يدعوهُ إلى أن يوردَ كلامَه على صورةٍ خاصة تُشاكلُ غرضَه. وتلك الصورةُ الخاصّة التي يوردُ عليها تسمّى «المقتضى» أو «الاعتبار المناسب». فمثلاً الوعيدُ والزجرُ والتهديد مقامٌ يقتضي كونَ الكلام المورِدِ فيه فخماً جزلاً. والبشارة بالوعد، واستجلابُ المودة، مقامٌ يتطلبُ رقيقَ الكلَام ولطيفَه. والوعظُ مقامٌ يوجبُ البسطَ والإطناب. وكونُ المخاطب عامّياً سُوقيّاً. أو أميراً شريفاً يوجب الإتيانَ بما يناسبُ بيانُه عقلَه.

(١) لأن البلاغةَ كلُّ ما تُبلغُ به المعنى قلبَ السامع، فتمكُّنُه في نفسه كتمكُّنه في نفسك، مع صورةٍ مقبولة، ومعرضٍ حسن. وإنما جعلنا حسنَ المعرضِ وقبولَ الصورة شرطاً في البلاغة، لأن الكلامَ إذاً كانتْ عبارتُه رثّةً، ومعرضُه خلقاً، لم يُسمَّ بليغاً، وإن كان مفهومَ المعنى، مكشوفَ المغزى.
فعناصرُ البلاغة إذاً: لفظٌ ومعنى، وتأليفٌ للألفاظ، يمنحها قوةً وتأثيراً وحسناً. ثم دقةٌ في اختيارِ الكلمات والأساليب، على حسبِ مواطن الكلام ومواقعه، وموضوعاته وحالِ السامعين، والنّزعة النفسية التي تتملّكهم وتسيطرُ على نفوسهم، فربَّ كلمةٍ حسُنتْ في موطن، ثم كانتْ مستكرهةً في غيره. وربَّ كلام كان في نفسه حسَناً خَلاباً، حتى إذا جاءَ في غير مكانه، وسقط في غير مسقطه، خرج عن حدِّ البلاغة، وكان غرضاً لسهام الناقدين.

(٢) أي أنّ الهيئةَ والصفةَ الراسخةَ الثابتةَ في نفسِ المتكلّم يمكنُه بواسطتها أن يعبرَ عن المعاني التي يريدُ إفادتَها لغيرهِ بعباراتٍ بليغة، أي مطابقةٍ لحالِ الخطاب. فلو لم يكنْ ذا ملكةٍ يقتدرُ بها على التصرُّف في أغراضِ الكلام وفنونهِ بقولٍ رائع، وبيانٍ بديعٍ بالغاً من مخاطبه كلّ ما يريد، لم يكنْ بليغاً. وإذاً لا بدّ للبليغ أولاً من التفكير في المعانيَ التي تجيشُ في=

وتلك غاية لن يصل إليها إلا من أحاطَ بأساليب العرب خُبراً، وعرفَ سُننَ تخاطُبهم في منافراتهم، ومفاخراتهم، ومديحهم، وهجائهم، وشُكرهم، واعتذارهم، ليَلْبِسَ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها، «ولكلِّ مقام مَقال».

أقوال ذوي النبوغ والعبقريّة في البلاغة

١ - قال قُدامةُ: البلاغة ثلاثةُ مذاهب:

المساواةُ: وهي مُطابقةُ اللفظ المعنى، لا زائداً ولا ناقصاً.

والإشارة: وهي أن يكون اللفظُ كاللَّمحةِ الدّالّة.

والتّذييلُ: وهو إعادةُ الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، ليظهرَ لمن لم يَفْهَمْه، ويتأكّد عندَ مَن فهمه[١].

٢ - وقيل لجعفر بنِ يحيى: ما البيانُ؟ فقال: أن يكون اللفظُ محيطاً بمعناك، كاشفاً عن مَغزاك، وتُخرجَه من الشركة، ولا تستعينُ عليه بطولِ الفكرة، ويكونَ سالماً من التكلُّف، بعيداً من سوءِ الصَّنعة، بريئاً من التعقيد، غنيّاً عن التأمُّل[٢].

٣ - ومما قيل في وصف البلاغة: لا يكونُ الكلامُ يستحقُّ اسمَ البلاغة

= نفسهِ، وهذه يجبُ أن تكونَ صادقةً ذاتَ قيمةٍ، وقوةٍ يظهرُ فيها أثرُ الابتكار وسلامةُ النظر، وذوقِ تنسيقِ المعاني وحسن ترتيبها. فإذا تمَّ له ذلك عمدَ إلى الألفاظ الواضحةِ المؤثرة الملائمة، فألفَ بينها تأليفاً يُكسبها جمالاً وقوة.

فالبلاغةُ ليست في اللفظِ وحدَه، وليست في المعنى وحده، ولكنّها أثرٌ لازمٌ لسلامةِ تألُّف هذينِ وحسنِ انسجامهما. وقد علمَ أنّ البلاغةَ أخصُّ والفصاحةَ أعمُّ لأنها مأخوذةٌ في تعريف البلاغة. وأنّ البلاغةَ يتوقّف حصولُها على أمرين، الأول: الاحترازُ عن الخطأ في تأدية المعنى المقصود. والثاني: تمييزُ الكلام الفصيح من غيره. لهذا كان للبلاغةِ درجاتٌ متفاوتةٌ تعلو وتسفُلُ في الكلام بنسبةِ ما تُراعى فيه مقتضيات الحال. وعلى مقدار جَودةِ ما يستعملُ فيه من الأساليب في التعبير والصور البيانية والمحسنات البديعية. وأعلى تلك الدرجاتِ ما يقربُ من حدِّ الإعجاز، وأسفلُها ما إذا غير الكلامُ عنه إلى ما هو دونَه التحقَ عند البلغاءِ بأصواتِ الحيوانات العُجْم، وإن كان صحيحَ الإعراب، وبين هذين الطرفين مراتبُ عديدة.

(١) نهاية الأرب، جزء ٧ ، ص ٨ .

(٢) نهاية الأرب، جزء ٧ ، ص ٦ .

حتى يُسابقَ معناهُ لفظَه، ولفظُه معناه، فلا يكونُ لفظُه إلى سمعك أسْبَقَ من معناه إلى قلبك.[١]

٤ - وسأل معاويةُ صُحاراً العَبْديَّ: ما البلاغةُ؟ قال: أن تُجيبَ فلا تُبْطئ، وتُصيبَ فلا تُخطئ.[٢]

٥ - وقال المفضَّلُ: قلتُ لأعرابي: ما البلاغة؟ قال: الإيجازُ في غير عَجْزٍ، والإطنابُ في غيرِ خَطَل.[٣]

٦ - وسُئل ابن المقفَّع: ما البلاغةُ؟ فقال: البلاغةُ اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكونُ في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكونُ في الحديث، ومنها ما يكونُ في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكونُ شعراً، ومنها ما يكونُ سَجْعاً وخُطباً، ومنها ما يكونُ رسائلَ. فعامّةُ ما يكونُ من هذه الأبوابِ الوَحْيُ فيها، والإشارةُ إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة.

فأمّا الخُطبُ بين السِّماطَيْن[٤]، وفي إصلاح ذات البَيْن، فالإكثار في غير خَطَل، والإطالةُ في غير إملال. ولْيكنْ في صَدْرِ كلامك دليلٌ على حاجتك. فقيل له: فإن ملّ المستمعُ الإطالة التي ذكَرْتَ أنها حقُّ ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيتَ كلَّ مقامٍ حقَّه، وقُمتَ بالذي يجبُ من سياسةِ ذلك المقام، وأرضيتَ من يَعْرِفُ حقوقَ الكلام، فلا تهتمَّ لِمَا فاتك من رِضا الحاسدِ والعدوّ، فإنّه لا يُرضيهما شيء. وأما الجاهلُ فلستَ منه، وليس منك. وقد كان يقال: «رِضاءُ الناس شيءٌ لا يُنال»[٥].

٧ - ولابنِ المعتزّ: أبلغُ الكلام ما حَسُنَ إيجازُه، وقلَّ مجازُه، وكثُرَ إعجازه، وتناسَبَتْ صُدورُه وأعْجازُه[٦].

---

(١) من كتاب البيان والتبيين للجاحظ: ١ / ٩٦ .
(٢) نهاية الأرب، جزء ٧ ، ص ٨ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ، جزء ١، ص ٩٧ .
(٤) مفردها سماط، وهو الصفّ.
(٥) البيان والتبيين، جزء ١، ص ٩١- ٩٢ .
(٦) نهاية الأرب، جزء ٧، ص ١١ .

٨ - وسمع خالدُ بنُ صفوانَ رجلاً يتكلّم، ويُكثرُ الكلامَ، فقال: اعلمْ - رحمكَ الله - أنّ البلاغةَ ليستْ بخفّةِ اللسان، وكثرةِ الهذَيان، ولكنّها بإصابةِ المعنى، والقصدِ إلى الحُجّة.[١]

٩ - ولِبِشْرِ بن المُعتمِر، فيما يجبُ أن يكونَ عليه الخطيبُ والكاتبُ رسالةٌ من أَنفسِ الرسائل الأدبية البليغة، جَمعتْ حدودَ البلاغة وصوّرتْها أحسنَ تصوير، وسنذكرُ مع شيءٍ من الإيجاز ما يتّصلُ منها بموضوعنا. قال:

«خُذْ من نفسك ساعةَ نشاطِك، وفراغَ بالك، وإجابَتَها إيّاك، فإنّ قليلَ تلك الساعة أكرمُ جَوهراً، وأشرفُ حسباً، وأحسنُ في الأسماع، وأحلى في الصُّدور، وأسلمُ من فاحشِ الخطأ، وأجلبُ لكلِّ عين وغُرَّةٍ من لفظ شريف، ومعنًى بديع.

واعلمْ أنّ ذلك أجدى عليك مما يعطيكَ يومُكَ الأطولُ بالكَدِّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلُّفِ والمعاودة.

وإياكَ والتوعُّر[٢]، فإنّ التوعُّرَ يُسْلِمُكَ إلى التّعقيد، والتعقيدُ هو الذي يَسْتهلكُ معانِيَكَ ويَشينُ[٣] ألفاظك. ومن أراد معنًى كريماً فليلتمسْ له لفظاً كريماً، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومن حقِّهما أن تصونَهما عما يُفسدهما ويُهجِّنُهما...

وكنْ في ثلاثِ منازل: فإنّ أولى الثلاثِ أن يكونَ لفظُكَ رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكونَ معناكَ ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمّا عند الخاصّة، إن كنتَ للخاصّة قصدتَ، وإمّا عند العامّة، إنْ كنتَ للعامّة أردت. والمعنى ليس يَشرُف بأن يكون من معاني الخاصّة، وكذلك ليس يتّضعُ بأن يكون من معاني العامّة. وإنما مدار الشرفِ على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجبُ لكلِّ مقامٍ من المقال. وكذلك اللفظ العاميُّ والخاصيُّ، فإن أمكنَك أن تبلغَ من بيانِ لسانك وبلاغةِ قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، على أن تُفْهِمَ العامةَ معانيَ الخاصّة،

(١) مختار العِقد الفريد ص ٩٨ .

(٢) اختيار الألفاظ الوحشية والغريبة واستخدامها في الكلام.

(٣) يعيب.

وتكسوَها الألفاظَ الواسعةَ التي لا تلطُفُ عن الدَّهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنتَ البليغُ التامّ.

فإن كانتِ المنزلةُ الأولى لا تُواتِيكَ ولا تعتريكَ، ولا تسنحُ لك عند أوّلِ نظرك، وفي أوّل تكلُّفك، وتجدُ اللفظةَ لم تقع موقعَها، ولم تصلْ إلى قرارها وإلى حقِّها من أماكنها المقسومة لها، والقافيةَ لم تحُلَّ في مركزها وفي نصابها، ولم تصل بشكلها، وكانت قلقلةً في مكانها، نافرةً من موضعها، فلا تُكرِهْها على اغتصاب الأماكن، والنُّزولِ في غيرِ أوطانها، فإنّك إذا لم تتعاطَ قَرضَ الشعر الموزون، ولم تتكلَّف اختيارَ الكلام المنثور، لم يَعِبْكَ بترك ذلك أحدٌ. وإن أنتَ تكلَّفْتَه، ولم تكنْ حاذقاً مطبوعاً، ولا محكِّماً لسانَك، بصيراً بما عليك أو ما لَك، عابَكَ من أنت أقلُّ عيباً منه، ورأى مَن هو دونَك أنه فوقَك.

فإن ابتُليتَ بأن تتكلّف القولَ، وتتعاطى الصنعةَ، ولم تسمحْ لك الطِّباعُ في أول وهلة، وتَعصّى عليك بعد إجالة الفكر، فلا تَعْجَلْ ولا تضجَرْ، ودَعْه بياضَ يومك، أو سواد ليلك، وعاوِدْه عند نشاطك وفراغ بالك، فإنّك لا تَعْدَمُ الإجابةَ والمُواتاةَ، إن كانت هناك طبيعة، أو جرَيْتَ من الصناعة على عِرق.

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادثِ شُغلٍ عرَض، ومن غير طولِ إهمال، فالمنزلةُ الثالثةُ أن تتحوّلَ من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفِّها عليك...، لأنّ النفوس لا تجود بمكنونها[1] مع الرّغبة، ولا تسمحُ بمخزونها مع الرّهبة، كما تَجودُ به مع المحبّة والشّهوة. فهكذا هذا.

وينبغي للمتكلم أن يعرفَ أقدارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين، وبينَ أقدار الحالات، فيجعلَ لكلِّ طبقة من ذلك كلاماً، وكلِّ حالةٍ من هذا مقاماً، حتى يقسِّم أقدارَ الكلام على أقدارِ المعاني، ويقسِّمَ أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات».

وبعدُ، فأنت ترى فيما قالوه أنّ حدّ البلاغة هو أن تجعلَ لكلِّ مقام مقالاً، فتوجزَ حيث يحسُن الإيجاز، وتُطنبَ حيث يجمُلُ الإطنابُ، وتؤكدَ

(١) الخفيّ، غير الظاهر.

في موضعَ التوكيد، وتقدِّمَ أو تُؤخر إذا رأيتَ ذلك أنسبَ لقولك، وأوفى بغرَضك، وتخاطبَ الذكيَّ بغيرِ ما تُخاطبُ به الغبيّ، وتجعلَ لكلّ حالٍ ما يُناسبُها من القول، في عبارةٍ فصيحة، ومعنى مختار.

ومن هنا عَرّف العلماءُ «البلاغة» بأنها «مطابقةُ الكلام لمقتضَى الحال مع فصاحةِ عباراته».

واعلمْ أنّ الفرقَ بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحةَ مقصورةٌ على وصفِ الألفاظ، والبلاغةَ لا تكونُ إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. وأن الفصاحةَ تكونُ وصفاً للكلمة والكلام، والبلاغةَ لا تكونُ وصفاً للكلمة، بل تكون للكلام. وأنّ فصاحةَ الكلام شرطٌ في بلاغته.

فكلُّ كلام بليغٍ فصيحٌ، وليس كلُّ فصيحٍ بليغاً، كالذي يقعُ فيه الإسهابُ حين يجبُ الإيجاز.

تمرين

بيِّن الحالَ ومقتضاه فيما يلي:

- هَناءٌ محا ذاك العزاءَ المُقدَّما فما عبسَ المحزونُ حتّى تبسَّما[١]

- تقول للرّاضي عن إثارةِ الحروب: «إنّ الحربَ مُتْلفةٌ للعباد، ذهّابةٌ[٢] بالطّارف والتّلاد»[٣].

- يقولُ الناسُ إذا رأَوا لِصّاً أو حريقاً: «لِصٌّ، حريقٌ»[٤].

- قال تعالى[٥]: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[٦].

---

(١) الحال هنا هو تعجيلُ المسرّة، والمقتضى هو تقديمُ الكلمة الدالة على السرور، وهي كلمة «هناء».

(٢) الحال هنا إنكارُ الضَّرر من الحرب، والمُقتضَى هو توكيدُ اللام.

(٣) الطارف عكس التالد.

(٤) الحالُ هنا هو ضيقُ المقام، والمقتضى هو الاختصارُ بحذفِ المسندِ إليه. والتقديرُ: هذا لصٌّ. هذا حريق.

(٥) سورة الجنّ، الآية ١٠ .

(٦) الحال في ﴿أشرٌّ أريد﴾ هو عدمُ نسبةِ الشرّ إلى الله تعالى. والمقتضى هو حذف الفاعل،=

- يقول راثي البرامكة:

أُصبْتُ[١] بسادةٍ كانوا عيوناً بهم نُسقى إذا انقطعَ الغَمامُ

ملاحظات

١ - التنافُر: يُعرف بالذَّوق السليم، والحسِّ الصّادق.[٢]

٢ - مخالفةُ القياس: تُعرف بعلم الصّرف.

٣ - ضعفُ التأليف والتّعقيد اللفظي: يُعرفان بعلم النحو.

٤ - الغَرابةُ: تُعرف بكثرةِ الاطّلاع على كلام العربِ، والإحاطةِ بالمفردات المأنوسة.

٥ - التّعقيدُ المعنويّ: يُعرف بعلم البيان.

٦ - الأحوالُ، ومقتضياتُها: تُعرف بعلم المعاني.

٧ - خُلُوُّ الكلام من أوجُه التّحسين التي تكسوه رِقّة ولَطافةً بعدَ رِعايةِ مُطابقته: يعرف بعلم البديع.

= إذ الأصل: أشرٌّ أراده الله بمن في الأرض؟
والحال في ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ هو نسبة الخير إلى الله تعالى، والمقتضى بقاء الفاعل من غير حذف «أي فعل الإرادة جاء مع الشر على صورة المبني للمجهول، ومع الرشد على صورة المبني للمعلوم، والحال الداعية إلى بناء الأول للمجهول (التأدب) في جانب الله تعالى بعدم نسبة الشر إليه صراحة، وإن كان الخير والشرّ مما قدّره الله تعالى وأراده».

(١) الحال هنا هو الخوف من (الرشيد) ناكبِ البرامكة، والمقتضى حذفُ الفاعل من «أصبتُ».

(٢) الذوقُ في اللغة: الحاسةُ يدرك بها طعمُ المأكل. وفي الاصطلاح: قوةٌ غريزيةٌ لها اختصاصٌ بإدراك لطائفِ الكلام ومحاسنِهِ الخفية. وتحصلُ بالمثابرة على الدرس، وممارسةِ كلامِ أئمة الكتّاب، وتكراره على السمع، والتفطُّن لخواصّ معانيه وتراكيبه. وأيضاً تحصلُ بتنزيهِ العقل والقلبِ عما يفسدُ الآدابَ والأخلاقَ. فإن ذلك من أقوى أسباب سلامة الذوق.
واعلمْ أنّ الذوقَ السليمَ هو العمدةُ في معرفةِ حُسنِ الكلمات وتمييزِ ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهرِ الاستكراه، لأن الألفاظَ أصوات. فالّذي يطربُ لصوتِ البلبل، وينفرُ من صوت البُوم والغربان، يَنبو سمعُه عن الكلمة إذا كانتْ غريبةً متنافرةَ الحروف. ألا ترى أن كلمتي «المزنة والديمة» للسحابة الممطرة كلتاهما سهلةٌ عذبة يسكنُ إليهما السمعُ، بخلافِ كلمة «البُعاق» التي في معناهما فإنها قبيحة تصكُّ الأذن؟ وأمثالُ ذلك كثيرٌ في مفردات اللغة، تستطيعُ أن تُدركَه بذوقِك. وقد سبق شرحُ ذلك.

فإذاً وجبَ على طالب البلاغةِ معرفةُ اللغة، والصَّرف، والنّحو، والمعاني، والبيان، والبديع، مع كونه سليم الذّوق، كثيرَ الاطّلاع على كلام العرب، وصاحبَ خبرةٍ وافرةٍ بكُتُبِ الأدب، ودِرايةٍ تامّةٍ بعاداتِهم وأحوالهم، واستظهارٍ للجيّدِ الفاخرِ من نَثرهم ونظمهم، وعلم كامل بالنابغين من شُعراءَ، وخطباءَ، وكُتّاب، ممّن لهم الأثرُ البيِّنُ في اللغة، والفضلُ الأكبرُ على اللّسان العربي المبين.

أسباب ونتائج

يحسنُ أيضاً بطالبِ البلاغة أن يَعرفَ شيئاً عن «الأسلوب» الذي هو المعنى الْمَصُوغُ في ألفاظٍ مُؤلَّفةٍ على صورةٍ تكونُ أقربَ لنَيْلِ الغرضِ المقصودِ منَ الكلام، وأفعلَ في نفوس سامعيه.

وأنواع الأساليب ثلاثة:

١ - **الأسلوبُ العلميُّ**: وهو أَهْدأُ الأساليب، وأكثرُها احتياجاً إلى المنطق السليم، والفكرِ المستقيم، وأبعدُها عن الخيال الشِّعْريّ. لأنه يخاطبُ العقلَ، ويُناجي الفكرَ، ويشرَحُ الحقائقَ العلميّةَ التي لا تخلو من غموضٍ وخفاء. وأظْهرُ ميزاتِ هذا الأسلوب «الوضوح». ولا بدّ أن يبدوَ فيه أثرُ القوّة والجمال. وقوّتُه في سُطوعِ بيانهِ، ورصانةِ حُججهِ، وجَمالُه في سهولةِ عباراتهِ، وسلامةِ الذوقِ في اختيارِ كلماته، وحسنِ تقريرهِ المعنى في الأفهام، من أقربِ وجوه الكلام.

فيجبُ أن يُعْنى فيه باختيار الألفاظِ الواضحةِ الصَّريحة في معناها الخالية منَ الاشتراك، وأن تُؤلَّفَ هذه الألفاظُ في سُهولةٍ وجلاء، حتى تكونَ ثَوْباً شفّافاً للمعنى المقصود، وحتى لا تُصبَح مثاراً للظُّنون، ومجالاً للتّوجيه والتأويل.

ويحسُنُ التّنحّي عن المجاز، ومُحسِّناتِ البديع في هذا الأسلوب، إلا ما يجيء من ذلك عفواً، من غيرِ أن يَمسَّ أصلاً من أصولهِ أو ميزةً من ميزاته.

أمّا التّشبيهُ الذي يُقصدُ به تقريبُ الحقائق إلى الأفهام، وتوضيحُها بذكرِ مُماثلها، فهو في هذا الأسلوب مقبول.

٢ - **الأسلوب الأدبي**: والجمالُ أبرزُ صفاتهِ، وأظهرُ مُمَيِّزاتهِ، ومَنْشأُ جماله، لِما فيه من خيالٍ رائع، وتصويرٍ دقيق، وتَلمُّسٍ لوجوهِ الشَّبهِ البعيدةِ بين الأشياء، وإلباسِ المعنويِّ ثوبَ المحسوس، وإظهار المحسوس في صورةِ المعنويّ.

هذا، ومن السَّهل عليك أن تَعْرِفَ أنّ الشعْرَ والنَّثرَ الفنّيَّ هما موطنا هذا الأسلوب، ففيهما يَزْدَهِرُ، وفيهما يبلغُ قُنّةَ[١] الفنِّ والجمال.

٣ - **الأسلوب الخطابي**: هنا تَبرُزُ قوّةُ المعاني والألفاظ، وقوّةُ الحجّةِ والبُرهان، وقوّةُ العقل الخصيب. وهنا يتحدّث الخطيبُ إلى إرادةِ سامعيهِ لإثارةِ عزائمهم، واستنهاضِ هِمَمهم. ولجمال هذا الأسلوبِ ووضوحهِ، شأنٌ كبير في تأثيرهِ، ووصولهِ إلى قرارةِ النفوس، وممّا يزيدُ في تأثيرِ هذا الأسلوب، منزلةُ الخطيبِ في نفوسِ سامعيه، وقوةُ عارضتهِ[٢]، وسُطوعِ حُجّته، ونبَراتُ صوتهِ، وحسنُ إلقائهِ، ومُحْكَمُ إشاراته.

ومن أظهرِ مميزاتِ هذا الأسلوب «التّكرارُ»، واستعمالُ المترادفات، وضربُ الأمثال، واختيارُ الكلمات الجزلة ذاتِ الرَّنين.

ويَحسُنُ فيه أن تتعاقبَ ضروبُ التعبير، من إخبارٍ، إلى استفهام، إلى تعجُّبٍ، إلى استنكار، وأنْ تكونَ مواطنُ الوقف كافيةً شافية، ثم واضحةً قويّة.

ويظنُّ النّاشئون في صناعةِ الأدب أنه كلّما كثُرَ المجازُ وكثُرتْ التّشبيهاتُ والأخيلةُ في هذا الأسلوب زاد حُسنُه.

وهذا خطأ بيّن، فإنه لا يذهبُ بجمالِ هذا الأسلوب أكثرُ من التكلُّف، ولا يُفسدُه شَرٌّ من تَعمُّدِ الصّناعة.

---

(١) القِمّة.

(٢) أي ما يقدّمُه من رأيٍ صائب.